بِلِّيْلَةِ الْخَيْمَةِ
السالِب
وَأَنْفَلَّتْ ثُورَةِ الجزِائِر
بِسَامِ المسَبَّابِ
--والنحاتين--
جميع الحكم محفوظ

الطّبِعَةُ الأوَّلَةُ : ١٤٢٢ هـ - ١٩٤٣ م
الطّبِعَةُ الثّانيَةُ : ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

٥ تأريخ النجاش

نشرت: مطبعة د. رشيد خان، مراكش، أواخر الألفية ١٩٦٧.
إلى روح الشهيد مصطفى بن بولعيد بطل الأوراس الأسطوري
وإلى روح الشهيد محمد العربي بن مهدي بطل المقاومة في
الجزائر,
وإلى أرواح إخوانيها من الشهداء الأبرار الذين أضافوا مشعل
النور أمام شعب الجزائر المجاهد,
وإلى إخوانيهم المجاهدين الذين تابعوا حمل رسالة الإسلام وأمانة
العروبة وانتصروا بها، ونصرها الله بحم.
إلى هؤلاء وأولئك الذين لا يزيد من مقضي منهم على من بقي حياً
إلا بشرف الشهادة.
مقدمة الكتاب

ويطول ليل الاستعمار حتى لتكاد النفوس الظامنة للحرية تبادل
من بزوغ الفجر. وتشتد وطأة الاستعمار حتى لتكاد النفوس المذبحة
تفقد الأمل من عدالة الحياة. وللفجر موعده، وللحياة نواميسها
وقوانينها المحكمة.

وكما يلتمع البرق في الليلة الظاهية الداكنة السوداء، وكما ينبع الماء
من الصخر الأصم. انطلقت صيحة "الله أكبر" في ليل عبد جميع
القديسين، وترددت في كل مكان من الجزائر صيحات "خالد"
و"عقبة". إنها كلمتا السر والتعارف اللتان اتفق عليها الثوار
للتعارف فيها بينهم.

"الله أكبر" - خالد - عقبة - وتردد جبال الأوراس أصداه
الصيحات المطلقة في السهول. "الله أكبر" - خالد - عقبة - لقد أن
لفجر أن ينبلج، وللنفس العطشى أن تنهل من مورد الحرية العذب
ومن منهل الكرامة الصافي.

ووفق الشعب الجزائري على فجر يوم جديد، إنه فجر المستقبل
الذي طال انتظاره. وقليل هم الذين وصلتهم أصوات الانفجارات
الأولى، وأزى الرصاصات المبكرة التي أطلقها حفنة من الثوار؛ معلنة
بها بدء جولة جديدة من جولات الاحتكام للسلاح. غير أن من فاتهم
سمع صوت مؤذن الفجر، لم يفتهما قراءة البيان الذي أعلنه ثوار الفجر.
«أيها الشعب الجزائري» «أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية».
إنها منظمة ولدت مع الفجر، تحمل اسم «جبهة التحرير الوطني» و«جيش التحرير الوطني»؛ وقد بدأت هذه المنظمة تأكيد وجودها بالنظر والتوجه إلى «الشعب الجزائري».
ولكن من هؤلاء الذين يختفون وراء التسمية الرمزية أو الشخصية الاعتبارية. لقد عرف شعب الجزائر أشياء لامعة، وقادة بارزين، تولوا الصراع وقادوا الجهاد بأسامائهم العلنية الصريحة. ولم يحدث قبل اليوم أن تعامل الجزائريون مع «جهولين».
ذلك لغز يجب حله؟
وينظر الاستعمار بكثير من الالتباس إلى تلك الظواهر المتفجرة التي برزت في ليل عيد جميع القديسين. لقد تعودت الاستعمارية الفرنسية على قمع ثورات أضخم، وحروب أكبر، فكيف اليوم، وفرنسا تمتلك من وسائط القذرة العسكرية ما لم تمتلكه من قبل.
ويصرح الحاكم بأمره في الجزائر «إنهم مجموعة من المتمردين، الفرنسا سحقهم قريباً». وتخرج الحملات العسكرية وتعود، دون أن تتمكن من سحق الفيلق.
وبدأ «شعب الجزائر» في التعرف على تلك الفتنة المختارة من المجاهدين، الذين أنكروا وجودهم ليقدموه هدية لشعبهم.
وأنلقت عري التعارف من خلال ما كان يقدمه المجاهدون من نضجية وساع. فأخبر على حامل لواء الجهاد، يضحىهم ويعمهم ويدمهم ويفتقدهم بكل ما يملك، ويشطرهم آلامهم ويوسهم.
وشظف عيشهم. ويفاسهم تضحياتهم. ويجن جنون الاستعمار، فيذف بكل أسلحته للمعركة، ويفذف الشعب الجزائري بالمقابل بكل قدراته وإمكاناته. ويتطور الصراع المصري بين قوتيين: قوة هابطة تمتلك كل القوى ما عدا الإيام، وقوة صادفة لا تمثل شيئا إلا الإيام.

وتأتي تجربة التاريخ لتؤكد من جديد انتصار «قضية الأيمن». تلك هي بايجاز «بداية الثورة، وتلك هي قصتها». إنها قصة «القادة التاريخيون» الذين عرفوا قدرات شعبهم وإمكاناته، وما يتفاعل فيه من انفعالات، وهي قصة «أصالة الشعب» الذي فقد كل شيء إلا إيمانه بالله وإسلامه وعروبه، وهي أيضاً قصة تيار الأحداث وتطوراته في العالم وهو ما أدركه شعب الجزائر المجاهد وقادته التاريخيون تجاهله دهافت الاستعماريين المتعلمين والمتحضرين والعقلانيين.

بضع مئات من الثوار، تسليحوه بواريد الصيد وبعض الأسلحة الحديثة وقيادة تضم بضعة أشخاص مغمورين تقريباً. وكلهم نصيبيهم من العلم الحديث قليل، ونصبيهم من الإيام كبر. لم يلبشو أن شكلوا تياراً جارفاً أفقز إلى الآلاف والآلاف من الألوم ثم إلى الشعب الجزائري كله خلال فترة قياسية من عمر الزمن، ولم يكن ذلك ليتحقق أبداً لولا التفاؤل العوامل الثلاثة: القيادة والشعب وتيار الأحداث في فجر عيد جميع القديسين.

ولم يكن من العبث - أو يحبس الصدفة - اختيار فجر عيد القديسين موعداً لانطلاقته الثورة. ولم يكن من العبث أيضاً، تحديد شعار انطلاقته الثورة بكلمة الجهد الحالية «الله أكبر» واتخاذ كلمتي
"خالد وعقبة" رمزاً للسر والتعارف بين الثوار التاريخيين.

لقد أعد كل شيء بإحكام رائع، وبدقة متناهية، فكان ذلك التنظيم هو السلاح الأول في عدة الثورات.

لقد ربطت الثورة، ومنذ انطلاقتها الأولى، خطوات الثورة بالأصالة التاريخية للشعب الجزائري المسلم المجاهد. وأعادت الثورة، ومنذ انطلاقتها الأولى، ارتباط الشعب المجاهد بمحيطه التاريخي والجغرافي الطبيعين (المغرب وتونس والعالم الإسلامي - العربي) فكان ذلك أيضاً بعض عدة الثورة في الانتصار على أعداء الثورة في الداخل والخارج.

وتبقى قصة الثورة الجزائرية، أكبر من الكلمات، وأعظم من كل وصف. إنها قصة الحياة لشعب رفض الموت، وانتصرت الحياة على الموت. وهي قصة شعب أحب الموت فوهب الله له الحياة.

بسام العسلي
هُنَّ الطَّائِفَةِ لِلْجَزَائِرِ هَاتِنَّا
إِنَّ الْجَزَائِرَ أُصِّرَتْ غَائِبَاتٌ
عَقِدَتْ لَهَا عَزْمَانَهَا فَمَنْ الَّذِي
غَيْرُ الْإِلَهِ يَجِلُ مِنْ عَزْمَانَهَا
اللَّهُ أَكْبَرُ هُؤُلَاءِ جَنُودُهَا
لَهَا لِدِعَوَتِهَا نِذَاةً دُعَاهُمَا.
ولقد قالوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا يعتدوا إني لذبابة المعتدين، وأقاتلهم حيث نقفهم وأخرجهم من حيث أخرجوك وعند المسجد الحرام حتى تقاتلونكم فيه، فإن قاتلوكم فأقاتلهم كذلك جزاء الكافرين فإن انتمروا فإن الله غفور رحيم وقاتلهم حتى لا تكون فتنة ويكون الذين نذرون فإن انتمروا فلأعدوا إلا على الظالمين.

الفصل الأول

1-الوضع العام في الجزائر عشية الثورة.
  أ- اغتصاب الأرض.
  ب- الموقف السكاني «الديموغرافي».
  ج- النهب الاستعماري.
  د- البترول والغاز الطبيعي.
  ه- الموقف التعليمي (الثقافي).
2-الموقع الجيوستراتيجي والديموغرافي.
  أ-1- إقليم الشواطئ.
  أ-2- إقليم الأطلس التالي.
أ- 3- إقليم النجود.
أ- 4- الأطلس الصحراوي.
أ- 5- إقليم الصحراء.
ب- 1- سودان الجزائر.
ب- 2- الأودية الشمالية.
ب- 3- أودية النجود.
ب- 4- الأودية الصحراوية.
ج- النطاقات المناخية.
د- الغطاء النباتي.
د- 1- إقليم البحر الأبيض المتوسط.
د- 2- إقليم الاستبس.
د- 3- إقليم الصحراوي.
لم تكن الثورة التي انفجرت في الجزائر في الفاتح من تشرين الثاني (نوفمبر) 1954 مجرد رد فعل على سياسة معينة، أو نتيجة إجراء استعماري محدد. فلقد كان نسيج الثورة متصلاً بعري وثيقة ومتلائمة مع مجموعة الحروب، والثورات والانتفاضات، وأعمال المقاومة التي اضطلع بها شعب الجزائر، طوال ليل الاستعمار الذي بدأ بالغزو الإفريقي البربري للجزائر المحتلة في سنة 1830، والذي انتهى بانفجار الثورة التحررية الكبرى في سنة 1954.

قرن وربع القرن؛ وشعب الجزائر المجاهد يحمل السلاح ضد الغزاة البربرية. لم يبن له عزم، ولم تلن له قتاة، وهو يدفع بقوافل الشهداء، القافلة في إثر القافلة، والوجدة تلو الوجدة، حتى حقق أهدافه.

وقد تحمل الشعب الجزائري من عنت المستعمرين، وجوهر أجهزة الاستعمار؛ ما لم يتحمله شعب من شعوب العالم، دواماً تغييراً أو مبالية، وعلى الرغم من ذلك فقد استمر في مقاومته، وأتسبب فرنسا ولم يتمتع، غير أن هذه الحرب طويلة الأمد، عملت على تغيير مجمل أوضاع الجزائر تغييراً كبيراً؛ لا في مجال الاقتصاد وحده، ولا في مجال التكون

10
الاجتماعي والثقافي أيضاً. وإنما في مجموع الأوضاع التي يعيشها الموانئ الجزائري والوطن الجزائري. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية - وعلى نحو ما سبق عرضه في الكتب السابقة من هذه المجموعة.

فقد جاءت الثورة الرائعة ثمرة إعداد طويل. بدأ على وجه التحديد بالنشاط السياسي الذي قام به الأمير «خالد الحاشمي» في العشرينات من هذا القرن، واستمر بعد ذلك عبر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من جهة، والمنظمات السياسية من جهة ثانية، وعلى هذا فإن الثورة الجزائرية الكبرى تتصل بمجموعة الأوضاع الناجحة عن الوجود الاستعماري ذاته، والذي دفع البلاد ومواطنيها إلى أوضاع لا يمكن معالجتها إلا بإجراء تغيير جذري وشامل، ومضاد بالضرورة للاستعمار الاستعماني. وقد جاءت مذبحة أيار - مايو 1945، وأعمال القمع التالية لتشكل الحافز المباشر للثورة. ومن هنا قد يكون من الضروري استقرار بعض ملامح الوضع العام للجزائر عشية ثورتها المباركة.

***

لقد عرفت الجزائر، منذ أقدم العصور، بغنى ثروتها الطبيعية، شأنها في ذلك شأن كل أقطار المغرب العربي – الإسلامي. ولقد أقام الفينيقيون على شواطئها عدداً من المراكز الزراعية التجارية التي سميت فيما بعد باسم «أهراء روما» قبل أن يطلق عليها اسم إفريقيا ذات الأرض الخصبة. وقد عاشت الجزائر قبل أن تتجها جحافل الغزو الاستعماري الفرنسي في سنة (1830) حالة ازدهار حقيقي، وعرفت رغد العيش. فالزراعة فيها كانت متطورة،
والتجارة البحرية ناشطة ومزدهرة... فكانت تمنع بالحبوب والمنتجات الزراعية الأخرى كثيراً من بلدان الغرب الأوروبي؛ وتموين حملة نابللين دليل على ما كان يتوفر للجزائر من الثروة الزراعية؛ كما كانت تصدر أدوات فنية ذات شهرة واسعة. وبعد مرور قرن على استعمار هذه البلاد، لم تتوقف الجزائر عن التقدم في المضمار الاقتصادي فحسب، بل إنها شهدت تقهقرًا وتراجعًا في مستوى حياة معظم المواطنين الجزائريين، بالمقارنة مع مستوى حياة أسلافهم. هذا بينها كان العالم يتطور في هذا القرن، ويقدم بقفزات واسعة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية.

وقد ظهر في الواقع أن ازدهار المواطنين الفرنسي، وارتفاع مستوي دخله، إنما هو ازدهار اصطناعي على حساب المواطنين الخاص للاستعمار. والأمر مماثل بالنسبة لفرنسا - كمجموعة - والتي طورت تقدمها على حساب الشعوب التي أخضعتها نير عبوديتها. ولم تكون مثل هذه المقارنة بعيدة عن أنظار المواطنين الجزائري الذي كان يعيش حياة البؤس والشفاء فوق أرضه الخيّرة المغطاء. وزاد الأمر سوءًا بمحاولات السلطات الاستعمارية تغطية نفسها واستنزافها بالحاق سبب التخلف بأنظمة الجزائر قبل الاستعمار (النظام العثماني - الإسلامي). ولقد اعتاد القائمون على حكم الجزائر أن يبرزوا في كل مناسبة - ما حقته الاستعمار الفرنسي من إنجازات في البلاد، معبدن الطرق الكثيرة التي أنشاؤها، والخطوط الحديدية التي نظموها، والمراكز الكهربائية التي شيدوها، وما أقاموه من سدود ومستشفيات ومدارس وكنائس (منارات الحضارة الغربية بزعمهم) والمدن الحديثة ذات العمارات المتعددة الطوابق.

١٧
ولم يكن هذا الأسلوب الدعائي ليخدع الجزائريين أو يضللهم... فقد كانوا يعرفون بأن معظم ما يطلق عليه اسم
«منحزات» إنما هو خدمة أهداف الاستعمار الاستيطاني، وتطوير عملية الرب الاستعماري للموارد والشروات. وإن المواطنين
الجزائري لم يفد من هذه «منحزات» شيئاً، وإنما على النقيض
أيضاً، فقد جاءت «منحزات» لتضفي إلى بؤسها بؤساً، وإلى
شفاقتها مزيداً من الشقاء. وقد ترك ذلك آثاره السيدة التي لم تقتصر
أضرارها على جيل جزائري واحد.

وأما لا ريب فيه هو أن الجزائر ذات وضع خاص كبلاد
مستعمرة... فالحركة العمرانية بقيت امتداراً - حكراً - للأقلية
الأوربية، ولصلحتها. والمدارس، إنها أقيمت للمستوطنين بالدرجة
الأولى، ولخدمة أهداف استعمارية محددة وواضحة. كا أن طرق
المواصلات إنها أقيمت لتحقيق هدفين مزدوجين أوهما: تسهيل
التحركات العسكرية، وثانيهما الوصول إلى مواطن الثروة السطحية
والحتاجية والناجم.» كا أن المستشفيات والخدمات الصحية لم
تتجاوز فائدتها المستوطنين إلا في حدود ضيقة. وبقي سواد الشعب
الجزائري المسلم نهباً للأمية والفقر المدقع، والأمراض الفتاك.

ولقد كان هذا التناقض الفاضح بين حياة أقلية مترفة وأكثرية
ساحقة محرومة هو الصورة الغريبة والمثيرة لما كانت عليه الجزائري طوال
فترة الاستعمار. وإن مستوى المواطنين الجزائريين المسلمين في حياتهم
ودخلكهم هو الذي يجسد بصورة حقيقية وواقعية الصورة البشعة لقذارة
الاستعمار. ولقد تطور الاقتصاد الاستعماري تطوراً سريعاً ومذهلاً،
ولكن هذا التطور إنما كان على حساب الملكية الوطنية الجزائرية
باستمرار. فكانت خطة الاستعمار الثابتة هي في تهديم وتدمر ثروات
الوطنيين وملكياتهم، من أجل بناء ثروات الاستعمار وأجهزته، وفقًا
لقوانين الاستعمار ومبادئ المحكمة.

لقد بقيت «المسألة الاقتصادية» هي العمود الفقري في سياسة
فرنسا الاستعمارية في الجزائر. فالاقتصاد الجزائري هو السبب الأول
الذي دفع فرنسا لاحتلال الجزائر. ولقد كانت سياسة فرنسا
الاقتصادية في الجزائر عملية اغتصاب ونهب عبر عنها الجنرال
بيجو» يوم 14- أيار- مايو- 1840 بقوله: «يجب أن يقيم
ال프نسيون المستوطنون حيث وجدت المياه الغزيرة والأراضي
الخاصة، بدون أي اهتمام بحق ملكية الأرض التي يجب توزيعها على
المستعمرين المستوطنين، وأن تصبح هذه الأراضي الخاصة من
أملاكهم الشخصية». وكان المارشال «سولت» في السنة ذاتها قد
صرح بما يلي: «إن استيطان الفرنسيين في الجزائر هو العامل الأول
للبقاء فيها، وهذا الاستيطان قمين بتهيئة الوسائط خلال سنوات
قليلة، للتمكن من الدفاع عن الجزائر، دون أن نستخدم أكثر مما يلزم
من قوى البلد - فرنسا - وأمواله».

أ - اغتصاب الأرض:

سارت عملية الاستعمار الاستيطاني في الجزائر، متباطئة أحيانًا،
mتسارعة في أحيان أخرى، وفقًا لما كانت تفرضه ظروف الدولية
والجزائرية. وكتراً ما اعتمدت فرنسا ظروف تطور هذه العملية،
(مثل أزمة احتلال الألمان - بروسيا - للألزاس واللورين - سنة
1870، والأزمة الاقتصادية الإيطالية في بداية القرن العشرين).
ولقد بدأ المستوطنون في الاستقرار على أرض السهول الساحلية، ثم لم يلبثوا أن أخذوا في التوغل نحو السهول الداخلية، ونحو مناطق المناجم الصحراوية، ويشير الجدول التالي تطور الملكيات الأوروبية في الجزائر:

<table>
<thead>
<tr>
<th>السنة</th>
<th>المساحة بالهكتار</th>
<th>السنة</th>
<th>المساحة بالهكتار</th>
<th>السنة</th>
<th>المساحة بالهكتار</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>1820</td>
<td>2,041,000</td>
<td>1920</td>
<td>100,000</td>
<td>1880</td>
<td>180,000</td>
</tr>
<tr>
<td>1840</td>
<td>2,041,000</td>
<td>1940</td>
<td>765,000</td>
<td>1880</td>
<td>180,000</td>
</tr>
<tr>
<td>1954</td>
<td>2,041,000</td>
<td>1954</td>
<td>1,240,000</td>
<td>1890</td>
<td>189,000</td>
</tr>
<tr>
<td>1959</td>
<td>2,041,000</td>
<td>1963</td>
<td>1,635,000</td>
<td>1900</td>
<td>1,912,000</td>
</tr>
<tr>
<td>1968</td>
<td>1,912,000</td>
<td>1968</td>
<td>1,240,000</td>
<td></td>
<td></td>
</tr>
</tbody>
</table>

المراجع: جغرافيا الجزائر - حليمي عبد القادر علي - ص 143

عملت الحكومة الفرنسية - وكل حكومة إفريقية - على تشجيع الأفراد الإفريقيين خاصة، والأفراد الأوروبيين عامة على الهجرة والاستيطان في الجزائر. وكذلك فلعت مع الشركات. وكان من أهم هذه الشركات: "المجموعة الجزائرية" التي نحتاها سلطة الاحتلال قرابة المائة ألف هكتار في شرق فلسطين، وجمعية "المقطع والهرة" التي تصدقت عليها بأكثر من 25 ألف هكتار من أجود الأراضي الوهرانية سنة 1865، و"شركة جنوة الإيطالية" التي وُهبت لها سنة 1863 مساحة عشرين ألف هكتار في إقليم سطيف، وطلبت منها مقابل ذلك جلب الإيطاليين إلى الجزائر.

لم يكن القطاع الزراعي هو المورد الرئيسي والتقليدي للبلاد، ولقد عمل النظام الاستعماري على جمع أكثر الأراضي خصباً وتركيزها في قبضة القطاع الاستعماري. وأدى ذلك بصورة طبيعية.
إلى بوس المواطنين الجزائري كنتيجة حتمية لانتزاع الأراضي الخصبة منه و تقديمهما للأوروبي. ونجم عن ذلك تفاوت هائل بين المالك الأوروبي والمالك الجزائريين. وهكذا أصبح هناك 25 ألفاً من المالكين الأوروبيين - من أصل 800 ألف نسمة - وهم يملكون (30, 000, 288, 000) هكتاراً من أكثر الأراضي الزراعية خصبة والتي تقدر مساحتها بـ (50, 000, 520, 000) هكتاراً - أي أن كل ملاك من هؤلاء يملك أكثر من 120 هكتاراً نسبياً منها 75 هكتاراً متجاً. أما المالك الجزائريون والبالغ عددهم (32) ألفاً من أصل عشرة ملايين، فكانوا يملكون (272, 000, 700) هكتاراً، أي بعدل 14 هكتاراً منها خمسة هكتارات منتجة فقط. أما الباقى وهو (4, 000, 000) هكتاراً، فهي معتبرة كملاك عامة تنصرف بها الإدارة الاستعمارية على هواها. ويظهر هنا الموقف بصورة الخطيرة عند معرفة أن هذه الأراضي الزراعية قد خصصت لزراعة المنتجات المعدة للتصدير. في حين كان يجب تخصيصها لتأمين المواد الزراعية التي يحتاجها أبناء البلاد. وأبرز مثال على ذلك هو توزيع الكرمة التي كانت الحافز الأول لمشروع الاستعماري، فهي تشغل مساحة (238) ألف هكتار، من أجد الأراضي. وكلها ملك للأوروبيين بدون استثناء. وتنجذ هذه الكرم (318, 000, 000) هكتاراً من الخمور التي تصدر أربعة أخماسها إلى الخارج(1) وتبلغ قيمة هذه الصادرات (140 مليون فرنك - حسب إحصاء سنة 1935) وهو

(1) ورد في جغرافية الجزائر- حليمي عبد القادر- ص 192. أن مساحة الأراضي المخصصة لزراعة الكرمة هي 362 ألف هكتار موزعة كما يلي: (200) ألف هكتار في إقليم وهران، و (87) ألف هكتار في إقليم مدينة الجزائر. و (25) ألف هكتار - وهي تشكل (7) بالمائة من مجموع الأراضي الزراعية - في الفطر الجزائري.
السنة التي ارتفع فيها تصدير الحموم إلى أعلى مستوياته ثم استمر محافظًا على معدله - أما الخضمايات والتبغ وغيرهما من المنتجات الزراعية الثمينة فهي تشغل (170) ألف هكتار، يستغل الأوروبيون تسعة أعشارها. وعلاوة على ذلك، فهناك عامل كان يزيد الوضع سوءًا، وهو أن أمالاك الأوروبيين كانت محمية ومتمصلة، في حين كانت أمالاك الوطنيين مفرقة ومتباعدة. فكانت أمالاك الأوروبيين منظمة كالتالي:

1 - ملكيات متوسطة: 48,724 بالمائة. 2 - ملكيات كبيرة: 73,048 بالمائة.

في حين كانت ملكيات الوطنيين منظمة كالتالي:

1 - ملكيات صغيرة: 100 بالمائة. 2 - ملكيات متوسطة: 38 بالمائة.

3 - ملكيات كبيرة: 2 بالمائة.

وقد يشهد بالذكر أن الزراعة كانت بالنسبة إلى صغار الملاكين الأوروبيين ومتوسطيهم، مجرد عمل إضافي (حالة ترف). أما كبار الملاكين، فهم مستعمرون أوروبيون أو شركات تمتلك ما بين 10 و70 ألف هكتار. هذا بالإضافة إلى أن الملاك الأوروبيين هم الذين يستفيدون من الفروض والميزات الزراعية الأخرى التي تسهل لهم استخدام الوسائل الزراعية الحديثة، في الوقت الذي يستمرون أيضاً في اليد العاملة الجزائرية بأجور منخفضة - بخشة -.

وبذلك فرض على الفلاح الجزائري عدم الاضطلاع بدور يذكر في الاقتصاد الوطني، حتى أصبح انتاجه في معظم الحالات لا يكاد يكفي لتأمين متطلباته الأساسية للعيش البسيط، ويفي السواد الأعظم من سكان الريف الجزائري، وهم الذين يشكلون الكتلة الضخمة.
للشعب الجزائري، يعيشون في بؤس مدقع أو في بطالة مستمرة أو استغلال محفر. وتعتبر هذه الطبقة حوالي (800) ألف عائلة. أي حوالي أربعة ملايين مواطن جزائري. وكانت الجزائر حتى الثورة تصدر في كل سنة (87) بالمائة من إنتاجها الزراعي إلى الخارج، في حين كان معظم السكان الريفين يعيشون على تغذية ناقصة مستدامة.

وقد لا تكون هناك حاجة لاستقراء ملحم «القوانين الاستعمارية» والمبادئ التي تم وضعها طوال فترة الاستعمار، والتي أدت إلى هذه النتائج المأساوية.

ويكفي التذكير بذلك القانون الذي أقرته الحكومة الفرنسية خلال مناقشاتها من 3- 10 تشرين الثاني - نوفمبر - 1859. وتم على أساسه تحديد الشروط التي تشكل بموجبها أملاك الدولة الفرنسية في الجزائر. وكان نص القانون بحريفيه كالتالي: «إن سكان البلاد الأصليين الذين لا يقدمون البرهان على جدارتهم بملكية الأرض، يعتبرون أمام القانون مستعمرين أو مستأجرين تستطيع السلطات تهجيرهم لتصبح أراضيهم ملكاً للمستوطنين». وليس من الصعب بعدها على الإدارة الفرنسية التي تمتلك القوة، أن تحدم (من ثم غير الجديرين بملكية الأرض من الوطنيين الجزائريين وتتم عمله تهجيرهم نحو الصحراى المفقرة).

ب- الموقف السكاني - الديموغرافى

لقد تداخلت مجموعة من العوامل لتشكل في الجزائر موقفًا سكانياً -ديموغرافياً- شاذًا وغريبًا. ومن أبرز هذه العوامل: 1- اغتصاب
الأرض الجزائرية الخصبة من أصحابها الشرعيين. 2 فتح باب الهجرة أمام الأوروبيين ومنحهم مميزات كثيرة على حساب المواطنين الجزائريين. 3 عدم توافر مجالات العمل الزراعي أو الصناعي، واضطرار أبناء الريف (الجزائريين المسلمين) للزحف نحو المدن، أو حتى الهجرة من البلاد. 4 النفخ السكاني في الجزائر، والذي يعتبر استجابة طبيعية ومضادة لمحاولات القضاء على العنصر المسلم (عربية وبربري). ويشير الإحصاء الرسمي الأول الذي جرى في الجزائر في تشرين الثاني - نوفمبر 1948، وهو الأول من نوعه الذي جرى في الجزائر بعد الحرب العالمية الثانية، إلى أن عدد سكان البلاد بلغ (8,682,000) نسمة، منهم (2,000,708) من الجزائريين و(2,742) ألفاً من الأوروبيين. وأشارت إحصاءات عام 1954 الرسمية إلى أن عدد السكان بلغ (6,028,579) منهم (2,000,486) من الجزائريين و(2,041,000) من الأوروبيين.

ولكن المفهوم أن عدد السكان الجزائريين قد خفض في هذا الإحصاء لأسباب سياسية. ويشتهر معظم السكان في المنطقة الساحلية الخصبة التي تلفت نحوًا من عشر مساحة البلاد فحسب. وكانت أعلى نسبة في كثافة السكان في مقاطعة الجزائر الوسطى، بينما أخفضها في مقاطعة وهران الغربية ولا تتجاوز نسبة كثافة السكان في مناطق الصحراء الجنوبية الشاسعة شخشاً واحداً لكل ميل مربع. وتبلغ نسبة الجزائريين للأوروبيين في منطقة قسنطينة الشرقية أعلى النسبة إذا ما أمكن مقارنتها بالمقاطعات الأخرى، إذ تبلغ نسبة الجزائرية الجبلية، وإذا ما وضع بالحسبان أيضاً تقاليد أصالة الثورة في قسنطينة (من أيام
أحمد باي قسنطينة وحتي الشيخ عبد الحميد بن باديس) فسيظهر بوضوح سبب اختيار الجزائر الشرقية لتكون القاعدة الأولى للثورة، أما في منطقة وهران التي ظلت هادئة عدة أشهر بعد نشوب الثورة؛ فتبلغ نسبة الجزائريين إلى الأوروبيين نسبة الخمسة إلى الواحد. وعلى كل حال، فقد يكون من المناسب ملاحظة تطور الانفجار السكاني قبل مرحلة الثورة، وهو الانفجار الذي كان عاملاً مساعداً في انفجار الثورة، وتطورها، وإمدادها بالقدرة القتالية:

<table>
<thead>
<tr>
<th>ملاحظات</th>
<th>عدد السكان</th>
<th>السنة</th>
<th>عدد السكان</th>
<th>السنة</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>1- المراجع: جغرافية الجزائر - حليم عبد القادر علي - ص 127</td>
<td>4,711,276</td>
<td>1911</td>
<td>2,307,536</td>
<td>1882</td>
</tr>
<tr>
<td>2- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد نجم عن الأوبئة</td>
<td>4,890,756</td>
<td>1921</td>
<td>2,732,385</td>
<td>1883</td>
</tr>
<tr>
<td>3- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>0,110,918</td>
<td>1922</td>
<td>2,520,727</td>
<td>1884</td>
</tr>
<tr>
<td>4- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>0,548,236</td>
<td>1923</td>
<td>2,452,932</td>
<td>1885</td>
</tr>
<tr>
<td>5- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>6,120,920</td>
<td>1924</td>
<td>2,482,497</td>
<td>1886</td>
</tr>
<tr>
<td>6- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>7,611,930</td>
<td>1925</td>
<td>3,224,879</td>
<td>1887</td>
</tr>
<tr>
<td>7- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>8,364,052</td>
<td>1926</td>
<td>3,095,686</td>
<td>1888</td>
</tr>
<tr>
<td>8- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>9,300,000</td>
<td>1942</td>
<td>3,764,000</td>
<td>1899</td>
</tr>
<tr>
<td>9- إن التراجع السكاني في سنة 1872 قد جاء نتيجة فشل ثورة المغاربة والخليج، وما حدث من هجرة إجبارية وأعمال إبادة ضد الجزائريين</td>
<td>12,101,294</td>
<td>1954</td>
<td>4,023,000</td>
<td>1900</td>
</tr>
</tbody>
</table>

لقد ترافق الانفجار السكاني خلال المرحلة التي سبقت الثورة، بهجرة واسعة النطاق، سواء داخل الجزائر ذاتها. من الريف إلى المدينة، أو من الجزائر إلى فرنسا، وعلى الرغم من بقاء الجزائر بلداً زراعياً بالدرجة الأولى، إلا أن عدد سكان المدن بلغ في عام 1954، أربعة أضعاف ما كان عليه هذا العدد في عام 1886. في حين لم يتزايد
عدد السكان في المناطق الريفية خلال المدة نفسها إلا بنسبة الضعف. وقد وجد هذا الاتجاه في الانتقال من حياة الأرياف إلى حياة المدن، بين الجزائريين والأوروبيين على حد سواء، لكنه كان أكثر وضوحاً بين الأوروبيين الذين أصبح ثمانون بالمائة منهم يعيشون في المدن في عام 1904، بينما كان 24 في المائة منهم يعيشون فيها في عام 1886. وقد اتجه الجزائريون أيضاً في القرن الماضي إلى المدن. وكان سبعة في المائة من الجزائريين يعيشون في المدن في عام 1886، بينما ارتفعت هذه النسبة إلى ثمانية عشر في المائة في عام 1904. وليس بإمكان القول أن جميع هؤلاء الجزائريين يساهمون في حياة المدن منهم مثل الأوروبيين. فبعضهم أقام لهم بورت من الصيف في الأوكاوة منها بالمنازل الشرعية. وهكذا، فقد كانت الحياة الحضرية في عهد الاستعمار من نصيب الأوروبيين بالجزائر، في حين بقيت الحياة البدوية والريفية من نصيب المواطنين الجزائريين وفقاً لما يبرزه الجدول التالي:

<table>
<thead>
<tr>
<th>نسبة المسلمين في المدن</th>
<th>المجموع</th>
<th>غير المسلمين</th>
<th>السنة الميلادية</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>12.4%</td>
<td>693,000</td>
<td>433,000</td>
<td>1882</td>
</tr>
<tr>
<td>20.0%</td>
<td>787,000</td>
<td>560,000</td>
<td>1904</td>
</tr>
<tr>
<td>21.0%</td>
<td>1,010,000</td>
<td>992,000</td>
<td>1926</td>
</tr>
<tr>
<td>22.0%</td>
<td>1,878,000</td>
<td>792,000</td>
<td>1948</td>
</tr>
<tr>
<td>24.0%</td>
<td>2,411,000</td>
<td>719,000</td>
<td>1950</td>
</tr>
<tr>
<td>25.0%</td>
<td>2,932,000</td>
<td>700,000</td>
<td>1960</td>
</tr>
</tbody>
</table>

وإذا ما تم الأخذ بنمذج لهذا التطور في المدن، ولتكن مدينة
الجزائر - العاصمة - على سبيل المثال، فسيظهر بأن عدد سكانها في سنة 1886 لم يكن يتجاوز (52) ألف نسمة منهم (22) ألف أوروبي والباقيون الجزائريون. وفي سنة 1906، ارتفع عدد سكان مدينة الجزائر إلى (174) ألفًا، منهم (134) ألف أوروبي، ثم وصل هذا العدد في سنة 1954 إلى (570) ألفًا منهم (172) ألف أوروبي، ثم إلى المليون بعد الاستقلال، منهم أقل من (500) ألف أوروبي. وله تأثير هجرة الجزائريين إلى المدن الرئيسية في بلادهم من الأمور الأخيرة.

وعلى الرغم من أن عدد الجزائريين كان متفوقًا دائمًا على الأوروبيين في مدينة قسنطينة، إلا أن هذا التفوق لم يكن يتجاوز السنتين آلاف لفان في عام 1886، بينما بلغ في عام 1954- لفان، وستين ألفًا. وفي عناية، المدينة الرئيسية الثانية في شرق الجزائر وذات الميناء الهام، كان عدد الأوروبيين متفوقًا على الجزائريين حتى عام 1948 فقط، ثم تفوق عدد المسلمين الجزائريين.

ويقيب هران هي المدينة الوحيدة التي كان الأوروبيون يتفوقون فيها على المسلمين، وإن كان عدد هؤلاء قد ارتفع بنسبة عالية خلال المرحلة التي سبقت الثورة. وهكذا كان عدد الأوروبيين متفوقًا على عدد المسلمين في ثلاثة أو أربع من المدن الرئيسية في الجزائر عام 1886. ولكن هذا الوضع انعكس تمامًا في عام 1954. ولم يحتفظ الأوروبيون بتقسيمهم العددي إلا في مدينة وهران فقط. ولقد كان لهذه الظاهرة أهميتها الكبرى خلال مرحلة الصراع الحاسمة، وخلال المحاولات التيلجأت إليها فرنسا لتقسيم الجزائر - على نحو ما تم في فلسطين.

وتبقى الظاهرة الأكثر أهمية في التركيب السكاني - الديموغرافي -
الجزائر، هي في فنون مجتمعها الشاب. ففي عام 1954، لم تكن نسبة من يزيد عمرهم على الستين، بأكثر من خمسة بالمائة. وكان هذا المجتمع يضم نسبة خمسين بالمائة من الذين تنقص أعمارهم عن العشرين عاماً. أما النسبة الباقية وهي خمسة وأربعون بالمائة فتشير إلى من تتراوح أعمارهم بين العشرين والسنين. وكانت نسبة زيادة الطبيعية للسكان عند الأوروبيين واحدا بالمائة في السنة، وهي ناجية عن زيادة ثابتة نسبة في معدل المواليد اتخذت هذا الشكل منذ عام 1939. وهبوط ثابت في معدل الوفيات. وبينما يميل تركيب السكان بين الأوروبيين في الجزائر إلى الفناء، إلى حد ما، فإن مسلمي الجزائر يعتبرون من أكثر الشعوب فناءً، وأكثرها تكاثراً في العالم. ففي عام 1954، كان معدل زيادة الجزائر بين المسلمين في حدود اثنين ونصف بالمائة.

وقد اعتبار هذا التزايد السريع بعد الحرب العالمية الثانية، في طبيعة العوامل الاقتصادية التي سببت أزمة حادة أدت إلى إفطار الفلاح الجزائري إلى حد أكبر مما كان عليه من الفقر في عام 1939. ووجد الفلاح الجزائري المسلم نفسه محصوراً بين موارده المحدودة جداً، وكثرة عدد الأفواه التي يجب تأمين الطعام لها. وكان لا بد من أن يتجه القادرون من الشباب نحو باب الهجرة إلى فرنسا بحثاً عن الأموى والطعام، وهكذا بلغ عدد الجزائريين المهاجرين إلى فرنسا سنة 1948 نحواً من مائتة وستين ألفاً. ثم ارتفع هذا الرقم إلى نحو أربعمائة ألف مع بداية الثورة. وقد استطاع هؤلاء المهاجرين الجزائريون تأمين الطعام لحوالي مليونين من مواطنيهم، بإرسال أجور عملهم إلى أهلهم وذويهم، ولو كان ذلك عل حساب حرمهم.
هم أنفسهم من كثير من ضرورات الحياة وممتلكاتهما.

كما أن هذا التفجير السكاني قد أدى إلى زيادة عدد العاطلين عن العمل في الجزائر نفسها، وبالتالي إلى زيادة التذمر، وإلى توافر عدد كبير من الرجال القادرين على الانضمام إلى جيش الثورة ودعمه.

وإذنما انفجرت الثورة، أجرت السلطات الإستعمارية بحثًا إحصائياً، كشف عن وجود أربعة وخمسين ألف عامل عاطل عن العمل. ولكن هذا التقدير لم يكشف عن حقيقة مدى البطالة، أو نصف البطالة بين مسلمي الجزائر. حيث كان عدد العاطلين في القطاع الزراعي يتجاوز ثمانمائة ألف.

كما أن عدد العاطلين وأنصاف العاطلين في جميع القطاعات قد تجاوز تسعمائة ألف من مجموع ثلاثة ملايين ونصف المليون، أي ما يعادل ربع المجموع الإجمالي للقوة العاملة. ولم يكن فقر الغالبية العظمى للجزائريين ناجمًا عن النسبة العالية للعاطلين عن العمل بصورة دائمة فحسب، بل عن تركيز الأراضي والثروة الصناعية في أيدي المستوطنين أيضًا، بالإضافة إلى التوزيع غير العادل في فرض الضرائب. وبالإضافة أيضًا إلى الأجور المنخفضة - والمحفظة - التي كانت تقدم لمسلمي الجزائر لقاء أعمامهم.

وعلى سبيل المثال، فقد أجريت دراسة (في حزيران - يونيو - 1955) أبرزت أن معدل الدخل الفردي عند أغلبية الجزائريين المسلمين لا يزيد على (45) دولارًا في السنة. وهناك نسبة ضئيلة من موالي الجزائر لا يزيد على الخمسين ألفاً يبلغ معدل دخل الفرد منها (502) دولار في السنة، هذا في حين كان متوسط دخل الفرد
الأوروبي لا يقل عن (240) دولار في السنة. وكان هناك (15) ألفاً من الأوروبيين يزيد دخل الفرد فيهم على (181) دولاراً في السنة. أما في مجال التشريع المجحف في فرض الضرائب؛ فيكشف القول بأن الضرائب التي كانت مفروضة على المسلم الجزائري في المدينة، والذي لا يتجاوز دخله (121) دولاراً في السنة، قد بلغت (40, 200) بالمائة اعتباراً من سنة 1951 وما بعدها. وهي عين النسبة المفروضة على الأوروبي من أبناء الطبقة الوسطى الذي يبلغ دخله (50) دولاراً في السنة.

ج - النهب الاستعماري

اعتمد النهب الاستعماري على ما هو معروف على مبتدئ أساسين: 1- الحصول على المواد الأولية التي تفتقر إليها الصناعة الغربية، بدون أي ثمن، أو في حدود الحد الأدنى من التكاليف. 2- تصنيع هذه المواد الأولية وإعادة تصديرها إلى البلاد التي يتم استعمارها. فتتح الأسواق في وجه الصناعات الغربية. وكان من المتوقع على هذا الأساس أن تعمل الإدارة الاستعمارية في الجزائر على تدمير الصناعات اليدوية القائمة، وعدم إفلاس المجال لها للتطور. وكان في الجزائر صناعات تقليدية بسيطة ورائعة توارثها الأبناء عن الأجداد جيلاً بعد جيل، وهذه الصناعات تقوم على أوش الصغيرة، أو في المنازل، وتعتمد في الغالب على اليد العاملة الماهرة والابداع الفردي، وهي إلى ذلك لا تتطلب رؤوس أموال ضخمة، ولا إلى شركات لتموينها، مثل صناعة الفخار والزرابي، والسجاد، والجمال، والخصر، والأدوات المنزلية، والخلي، والصناعات الخشبية، ودباغة الجلود وصناعتها الخ...

30
ولم يكن باستطاعة هذه الصناعات أن تصمد في وجه الصناعات التي اشتهرت باريس في إنتاجها، لا سيما وأن أسعار هذه الصناعات الغريبة - الأفريقية - طرحت لتكون منافسة لأسعار الصناعات التقليدية. فأخذت هذه الصناعات في الانحدار والتقهقر ومن ثم الانقراض. وتفتت الصناع عن ورشاتهم وحللتهم وأغلقها. فزالت الأسواق الوطنية الجميلة، لتحل محلها مراكز البيع العصرية التي يديرها الأوروبيون.

وقد شكل القضاء على الصناعة الوطنية التقليدية عاملًا إضافيًا زاد من صعوبة الأزمة الاقتصادية التي فرضها النظام الاستعماري على الوطن الجزائري والمواطن الجزائري. ولم تحاول الإدارة الاستعمارية بالمقابل إقامة صناعة حديثة في الجزائر، بالرغم من توافر المواد الأولية (الحديد، والفوسفات، والجبس، والفحم، والطاقة الهيدروليكية - ثم الطاقة البترولية في الفترة الأخيرة)، وحتى الصناعات الغذائية احتكرتها فرنسا، ولم تسمح بباقمها في الجزائر. وعندما وقعت الحرب العالمية الثانية، شعرت فرنسا بالحاجة لإقامة صناعات في مستعرارتها لدعم مجهودها الحربي، فأقامت في الجزائر بعض المصانع الصغيرة التابعة للمؤسسات الصناعية الضخمة في فرنسا، وذلك حتى لا يكون هناك تناقض مع المبدأ الذي تبنته فرنسا وهو: "أن فتح مصنع بالجزائر معناه إغلاق آخر في فرنسا والقضاء بالتالي على الاقتصاد الفرنسي"، فكانت المصانع التي أقيمت، في معظمها، فرعاً للمعامل الأفريقية. ولقيت إقامة هذه الصناعات تشجيعاً حيث يتوازف في الجزائر السوق المرحة، والمواد الأولية واليد العاملة الرخيصة.
ورتفع بذلك عدد العمال حتى (38) ألف عامل.

وكان من أبرز الصناعات التي تم إقامتها صناعات: النسيج، والمواد الكيميائية، والفلفل، واللحوم، واللبن، والمواد الغذائية، و‧كرير البرتول، والمعادن. وأقيم فرع لصناعات السيارات (رينو) بالقرب من الجزائر العاصمة - يعمل فيه 500 عامل - وينتج سنوياً (12) ألف سيارة. وهو مصنع تجميع، بالإضافة إلى مصنع ‧برلية″ شرق الجزائر العاصمة ويعمل فيه 600 عامل. وكفاءته الإنتاجية 1800 سيارة سنوياً. ولم تكن إقامة مثل هذه الصناعات في كل الأحوال منافسة مع مبادئ النهب الاستعماري،بقي الحصول على المواد الأولية، وتصديرها في حالاتها الحالية إلى فرنسا، هو الأساس في تعامل فرنسا مع الجزائر، وقبة المواد الأولية تصدر بكاملها تقريباً إلى فرنسا. وكانت الشركات التي تقوم باستيراد المعادن هي شركات أفريقية، وها هو نموذج عن استيراد المعادن من المناجم الجزائرية والمصدرة إلى فرنسا - وفقاً للإحصاءات الرسمية لتصدير المعادن في سنة 1953:

الحديد: الإنتاج (9,112,320) طن يصدر منها 3,352 طن.
(9121,031) طن.
الرصاص: الإنتاج (1,018,11) طن يصدر منها (900) طن.
الفوسفات: الإنتاج (627,002) طن يصدر منها (627,002) طن.
الفحم: الإنتاج (9,012) طن يصدر منها (900) طن.

تحذر الإشارة إلى أن إقامة هذه المصانع وتطويرها قد أصلح بأي اقتصاد معاوية المستوطنين ومعارضتهم. ومثال ذلك رفع مصنع الشوندري.
السكري من الأفراد من ضد إقامة مصنع للسكر في الجزائر. وكان من نتيجة هذه المقاومة بقاء حركة التصنيع في طور بدائي جداً. وقعت البلاد زراعية بالدرجة الأولى، ولم تتجاوز الصناعة الجزائرية حتى عشية الثورة أكثر من (28) بالمائة من الإنتاج العام. وكانت بأوضاعها تلك لا تستطيع أن تستوعب أكثر من 7 بالمائة من اليد العاملة الوطنية. وبقيت الجزائر بلاداً متخلفة اقتصادياً. ويذكر أن بعض الشركات الدولية الكبرى قد حاولت إقامة مصانع لها في الجزائر - مثل شركة سولفاجي لإنتاج المواد الكيميائية - غير أن قبضة المعيرين القوية نجحت في إحباط هذه المحاولات وذلك "حتى لا تعمل هذه الصناعات على انتزاع قسم من اليد العاملة التي يستغلونها بثمن بخس. وحتى لا تشكل طبقة العمال - البروليتارياء - وتنظم، الأمر الذي يتناقض مع مصالحهم الاستعمارية".

* * *

وتحكمت قبضة فرنسا الاستعمارية بالتجارة بمثل تحكمها بالزراعة والصناعة، وكانت معظم الصادرات الجزائرية من المنتجات التي يحتاجها النظام الاستعماري من المواد الأولية. أما الواردات فكان (80) بالمائة منها من المواد المصنعة، والباقي من المواد الغذائية (مثل القهوة والشاي والسكر) وهي المواد التي تشتهر على نطاق واسع في البلاد المتخلفة غذائياً. وتشكل هذه المواد نسبة (59) بالمائة مما يستهلكه الجزائريون. وتشير طبيعة هذا التبادل إلى أن الصادرات الجزائرية تفوق بحجمها الواردات. أما من ناحية القيمة، فالأمر على النقيض من ذلك. وها هي الإحصائية الرسمية التي نشرت سنة 1953 والتي تؤكد هذه الحقيقة:
صادرات الجزائر (191,187,1,671) طن قيمتها (200,828,136).

немилار فرنك فرنسي.

ما تisperره الجزائر (617,265,0,72) طن قيمتها (194,202).

немилار فرنك فرنسي.

أما في سنة 1959، فكان الميزان التجاري كا يلي:

صادرات الجزائر (1,000,000,000) طن قيمتها (470,180,32).

немилار فرنك فرنسي (قدم).

ما تisperره الجزائر (1,000,000,000) طن قيمتها (470,180,32).

немилار فرنك فرنسي (قدم).

ويظهر بذلك أن العجز في سنة 1959 - قد وصل حتى (340,267,182 немилار فرنك (قدم)). وكانت أعباء هذا العجز ونتائجه تقع على عاتق المسلم الجزائري. ويجب أن يضاف إلى ذلك أن التنظيم التجاري الذي فرضته فرنسا على الجزائر، كان يحتم نقل جميع هذه البضائع على البواخر الإفرنسية، الأمر الذي كان يزيد من الأرباح الإفرنسية، ويضاعف من الكسب لمصلحة الاقتصاد الاستعماري.

كما كان الاتحاد الجميري مع فرنسا يفرض على الجزائر العزلة التامة عن العالم أجمع، ويستبعد كل منافسة أجنبية. وباقي المواطنين الجزائريون المسلمين معزولون عن العمل في المجالات التجارية. فكان كل تداول تجاري يتم مع الخارج عن طريق العملاء الأوروبيين (الوسطاء). وكان من نتيجة هذا التنظيم الاقتصادي للجزائر زيادة الأعباء على المواطن الجزائري (المستهلك).

لقد استكرت الإدارة الإفرنسية تجارة الجملة (التصدير والاستيراد) وأسندتها إلى اليهود والإفرنسيين، وحاول بعض
المسلمين الجزائريين اقتحام هذا المجال، غير أنهم صدوا بمقاومة الإدارة الإفريقية من جهة ومقاومة الوسطاء (اليهود والإفرنسيين) من جهة ثانية. وكانت مقاومة الإدارة الإفريقية عن طريق رفض العملات - القطع النادرة - التي طلبهما المسلمون لاستيراد البضائع الأجنبية. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت عملية التصدير والاستيراد تتطلب رؤوس أموال ضخمة، وكانت المصادر البنوك في قضى الإفرنسيين.

وهذا ما كان يمنع المسلمين من ممارسة الأعمال التجارية الخارجية إلا إذا وقعوا في قضية الرأسماليين من اليهود والإفرنسيين، بما أن عدد الأوروبيين بقي يتزايد بصورة مستمرة، فقد أخذ عدد من هؤلاء أيضاً يمارس اتجارتهما بالتجزئة (المفرق). وباختصار، حيث يشكلون أجمل الحوانيت في المدن والقرى الجزائرية الصغيرة، وبات أكمل تاجر جزائري لا تنعدم إمكانياته المادية ورخصة عمله الحكومية فتح دكان لبيع المواد التجارية بالجملة أو المفرق. وبدأت القروض ورخص الاستيراد والتصدير مرفوضة للصناع والتجار المسلمين من الجزائريين الذين لا يرهنون على ولائهم للاستعمار، وهي ممنوحة لأولئك الذين ينفعون للذل والعبودية.

ويموجب سياسة الاستغلال هذه، يتوجب على الجزائري الذي يرغب في فتح دكان أو مطعم أو مقهى أن يسير حسب تعالم الشرطة الإفريقية - البوليس - الذي يعد المرجع الأول والأخير لدى الإدارة الاستعمارية التي تمثل الرخصة الرسمية. فإذا ما تبين أن المتقدم بطلب الرخصة يتبع بأرائهم وطنية، أو ظهرت آراءه هذه بعد أن يكون قد حصل على الرخصة، فسرعان ما تسحب الرخصة ويغلق محله.

٣٥
ويسجل اسمه بالمداد الآخر، علامة العصيان، ونذيراً لما سيلاقيه هو
عائلته من تعسف واضطهاد.
وبقيت الضرائب الفادحة، وإغلاق المقاهي الإسلامية، وتشجيع
الصناعات المماثلة التي استطاع المسلمون أن يبرزوا فيها (مثال ذلك:
الكوكاكولا ضد مصانع الليموناضة الجزائرية). واستصافاء الأموال,
والمحاكمات والمصادرات وعزل العمال والموظفين المسلمين المتهمين
بجريمة (الجيرة الوطنية) كل هذه وسائل عادية في جملة الوسائل
الاستعمارية لقمع الشعب الجزائري من الناحية الاقتصادية.
أما فكرة إنشاء المصانع والشركات، أو تعاطي تجارة كبرى
كالتصدير والاستيراد، فيجب على الجزائري أن يستبدها عن
تفكيره، لأنه من المحال عليه بلوغها. ولم يكن ذلك غريباً بعد أن
أصبحت هناك حفنة من المعمرين الذين لا يتجاوز عددهم أصبع
اليد، وهم يتحكمون بكل اقتصاديات الجزائري، من أمثال «هنري
بورجو» و«جورج بلانشات» و«لوران شيامينو» الذين أحكموا
سيطرتهم على كافة المصانع والشركات والبنوك والمناطق، واستولوا
على أطيب الأراضي الزراعية في الجزائر وأخصبها.

د - البترول والغاز الطبيعي

لقد ظهرت مشكلة الطاقة المماثلة (بالطاقة البترولية بالدرجة
الأولى) في ظروف حرب العشير من رمضان (تشرين الأول -
أكتوبر - 1973)، وأخذت أبعادها الحادة والخطيرة. غير أن جذور
هذه المشكلة تمتد في الواقع إلى أيام الحرب العالمية الثانية. وقد كان
هذه المشكلة أبعادها الاقتصادية الهامة والخاسمة في التأثير على مجموعة
المواقع خلال مسيرة الصراع الفرنسي - الجزائري، وحتى خلال المرحلة التالية حرب التحرير. وقد كان هذا التأثير نتيجة لما تم اكتشافه في الجنوب الجزائري وبقية مناطق الصحراء من الثروة البترولية والغاز الطبيعي.

ذلك أن اكتشاف البترول في الجزائر، أحدث تغييراً واضحاً في مجموع الأوضاع الاقتصادية للجزائر خاصة، وأقطار المغرب العربي الإسلامي بصورة عامة. وعلى الرغم من أن عمليات التنقيب خلال مرحلة ما قبل الثورة، لم تكن إلا عمليات جزئية ومحدودة في المناطق الصحراوية، إلا أن الأبحاث قد أكدت في تلك الفترة أن الإنتاج السنوي سيصل حتى (13) مليون طن في العام 1960، وأن هذا الإنتاج سيترتفع حتى (25) مليون طن في العام 1970. وظهر أن هذه الثروة الكامنة ستفتح آفاقاً جديدة ويجعل رحلهم أمام المستقبل الاقتصادي للجزائر. وتستطيع الجزائر نتيجة ذلك احتلال مركز ممتاز يتيح لها أن تتصنح، وأن تنبرس بسرعة لرفع مستواها الاقتصادي الأمر الذي سيساعدها على تجاوز مرحلة التخلف التي جهدت فرنسا طويلاً لتكونها خلال ليل الاستعمار.

لقد أدى ذلك إلى زيادة مسكة فرنسا بواصلتها في الجزائر، وزاد من ضرائها (أو استمتائها) للاحتفاظ بالجزائر وبترولها، ما كان يحدث من تحولات مستمرة، واضطرابات متوقعة في السوق البترولي للعالم العربي (الذي ما زالوا يطلقون عليه اسم الشرق الأوسط) نتيجة التطور المستمر في الصراع العربي - الإسرائيلي. وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان من المتوقع أن ينفرد البترول الجزائري والغاز الطبيعي المستخرج من الجزائر في ميزاتها الخاصة، وهي قريبة من السوق
الاستهلاكى في الغرب - المستورد الأول في العالم للطاقة البترولية.

ولقد وطدت فرنسا نفسها، وعزمت عزمها، على بذل المستطاع،
وأكثر ما هو مستطاع، من أجل الاحتفاظ ببترول الجزائر واستماره
ونهبه... وهذا أعلنت أن الصحراء الكبرى هي أرض فرنسية
منفصلة عن الجزائر، وأقامت للصحراء حدودها المصنعة، وشكلت
لها حكومة خاصة ووزارة جديدة. وعملت في الوقت ذاته على تصعيد
الصراع في حربها الشاملة ضد شعب الجزائر بهدف تأمين طريق
بترولي، بينما راحت تبحث عن خيار سياسة تبادلية تتضمن لها
إحكام قبضتها على الجزائر وعلى أقطار المغرب العربي الإسلامي كافة.

وقد ركزت فرنسا جهدياً - في إطار صراعها السياسي - على
مضاعفة اتصالاتها بالشركات البترولية العالمية، بهدف إثارة اهتمام
هذه الشركات ببترول الجزائر، ومحاولة إغراء رؤوس الأموال الأجنبية
التي تعمل في التنقيب عن هذا البترول. وكانت فرنسا تعرف أن
مشاريع البترول الجزائري تتطلب إمكانيات مالية وتقنية تزيد كثيراً على
ما كان متوافراً لها في تلك الفترات. وهذا فقد أثارت اهتمام الدول
الأوروبية الأخرى - ولا سيما دول السوق الأوروبية المشتركة - بهذا
البترول، وعادت إلى طرح مشاريعها الاستعمارية القديمة بأثواب
جديدة عن طريق ما أطلقت عليه اسم «إقامة المنظمة الأوروبية -
الأفريقية - أروفريقيا» مع إعطاء هذه المنظمة المقترحة صيغة تجميلية
مبتكرة. غير أن الجزائر الثائرة لم تقف جامدة تجاه هذا التحرك
الإفريقي المكشوف لها في وضائها وأهدافها. فعملت على إحباط كافة
المشاريع المطروحة.

وقدر بالذكر أن «لجنة التنسيق والتنفيذ» التابعة لجبهة التحرير

38
الوطنية الجزائرية قد تبعت منذ البداية هذه الأخطار الجديدة المحدقة بالبلاد. فعملت على تحذير جميع البلدان المؤيدة لأطعمة فرنسا الاستعمارية أو المناهضة لها من مغبة الاستجابة للمشاريع الأوروبية. وعندما أعلنت فرنسا في سنة 1957 عن إصدارها لقانون استثمار البترول. رددت لجنة التنسيق والتنفيذ الجزائرية بما يلي: «إن حق استثمار البترول هو أمر منوط بحكومة وطنية جزائرية ذات سيادة. وعلى هذا فإن الجزائر لن تكون ملزمًا بأية معاهدة أو أي اتفاق أو التزام قامت به فرنسا أو تقوم به باسم الجزائر». وفي الوقت ذاته قام جيش التحرير الوطني الجزائري بشن مجموعة من المعارك الظاهرية في الصحراء، وضاعف من خلاله على الحامية الأوروبية فيها، وبهذا أصبح من المحال متابعة نقل البترول بواسطة الحاملات أو الناقلات الخاصة، والتي أرادت فرنسا من خلالها إعطاء عملية التنقل قيمة رمزية.

أمام هذا الموقف، لجأت فرنسا إلى استخدام سلاح جديد - قديم - وهو سلاح التفرقة بين أقطار المغرب العربي - الإسلامي؛ ففي تلك الفترة، عقدت لجنة «التنسيق والتنفيذ الجزائرية» مؤتمر طارئ » مع ممثلي المغرب وفرنسا، بهدف «تشكيل الجبهة المغربية» لمقاومة المخططات الأوروبية وتنسيق الجهاد العربي ضدها. فها كان من فرنسا إلا أن عقدت اتفاقاً مع تونس (سنة 1957) يسمح لشركة فرنسية ببيع أراضي تونس بछويرة من «أدجيليه» في الجزائر إلى البحر الأبيض المتوسط عبر الأراضي التونسية، وأقامت تونس على عقد هذا الاتفاق مدفعية بقلق غامض على مصير وحدة أقطار المغرب العربي- الإسلامي، وللعبائر أخرى تتعلق بمستقبل هذا المغرب. وكان رد

39
الفعل المباشر والفوري «للجنة التنسيق والتنفيذ» إصدار بيان أعلنت فيه: «بأنها تعتبر توقيع هذه الاتفاقية خرقًا لقرارات مؤتمر طنجة، واعترافًا ضمنيًا من تونس بحق فرنسا في بترول الجزائر. وأن الشعب الجزائري لن يقبل بأن تغذي الحرب التي تشن ضده لمدة طويلة أو قصيرة، بترول ينقل عبر أراضي بلاد المغرب. كما أن مد الأنابيب المتفق عليه، يفقد الشعب الجزائري الفوائد المرجوة من معركته في الصحراء. وهي المعركة التي يخوضها آلاف المواطنين الجزائريين. إن الاتفاقات الحقيقية لا يمكن أن تبرم إلا في مغرب متحرر، وبعد أن تبنى في كل بلد سياسة اقتصادية موحدة، أما مساهمة الدول الأجنبية في استمرار هذا البتروال، فليسها أمرًا ثانويًا، بل أوليًا لا مناص منه، بيد أن هذه المساهمة لا يمكن أن تتم إلا مع مراعاة المصالح المغربية. وعلى أساس الحرية التامة بين المت遘دين، والحقوق المشروعة للطرفين المت遘دين». وعلى أثر ذلك أعلنت الحكومة التونسية أنها لن تسمح بضغ البترول الجزائري إلا بعد انتهاء الحرب الجزائرية الإفرنجية. وأمكن تجاوز الأزمة في ظروف الحرب. لتبرز بعد ذلك عند عقد اتفاقية «إيفيان» وتبرز بشكل أخطر في «مشكلة الصحراء».

**- الموقف التعليمي (الثقافي)**

كان السلاح الثقافي هو السلاح الرئيسي الذي استخدمته فرنسا لتدمير الجزائر، وفصلها عن أصلها وماضيها وتراثها الحضاري ومستقبلها، وبالتالي عزلها عن محيطها الإسلامي - العربي. فانتشر في
الجزائر، وعلى نطاق واسع، أدب استعماري هدفه تمجيد فرنسا وعظمتها وتفوقها وما تقيمه من مشاريع في الجزائر (لتحضيرها وتمديدها وإخراجها من الظلمات إلى النور). وإذا ما تمت العودة إلى ما تم طرحه باسم «الثقافة الثقافية الفرنسية» فسيظهر أن فرنسا قد خلقت حرفة باسم «البعثات الثقافية الاستعمارية». غير أن تجربة أكثر من قرن قد أرهنت على أن الوجود الاستعماري في الجزائر كان سبيلاً في تقهقر الجزائر تعليماً وثقافياً، وتوقفها عن كل تطور طبيعي للثقافة الجزائرية الأصلية. ولم يكن حملة لواء تلك «البعثات الثقافية الاستعمارية» في الواقع سوى نفر من المهاجرين المضطربين فكرياً والفقراء عقلية، والملتئمين ماديًا. جاءوا من وراء البحر يدفعهم حب المغامرة والرغبة في جمع المال، فكان همهم الوحيد وهم يبحثون أرضًا تم إخضاعهم حديثاً بقوة السلاح، أن يعيشوا بيسر وسهولة، وأن يجمعوا بسرعة ثروة كافية. ولقد وجد هذا النفر نفسه حيال الشعب الجزائري المتقدم في ظل الحضارة العربية والثقافة الإسلامية. وهو بالتالي لم يكن شعبًا جاهلاً أو بربريًا كما أرادت تصويره روایات الأدب الاستعماري» والذي يعتمد على مجموعة من الأساطير القديمة والمربعة في تاريخها بأيام الحروب الصليبية القديمة وأحداثها.

كان يوجد في الجزائر قبل احتلال فرنسا سنة 1830 جمعية ثقافية إسلامية كبرى، إلى جانب جمعيات صغيرة كثيرة. فكان التعليم منتشرًا حتى في أقصى المناطق النائية، وفي أصغر القرى - والدواوير - فكان المرء يرى المدارس الكثيرة التي تضم الشبيبة الناشطة. كما كانت الجامعات منتشرة في كافة أصقاع العالم الإسلامي - العربي. وقد سجل "الجزائر هوتيبول" في مذكرة بعث بها سنة 1850 إلى رئيس
الجمهورية الثانية ما يلي: "كانت الثقافة الإسلامية قبل الاحتلال واسعة الانتشار، وشاملة للفروع الآتية: 1 - التعليم الابتدائي الذي يشمل الأطفال بين الثالثة والعشرة. 2 - التعليم الثانوي ويشمل الأحداث بين العاشرة والخامسة عشرة. 3 - التعليم العالي: للشباب، ويشمل الفقه والحقوق والرياضيات وعلم الفلك والجغرافيا والتاريخ والطب. وكان التعليم الثانوي والعالي مجاناً كتعليم الابتدائي. وكان يوجد في الجزائر أيضًا جامعات أهمها: جامعة قسنطينة، وجامعة مدينة الجزائر، وجامعة تلمسان، وجامعة تونس وأسكندريه. وكانت هذه الجامعات من مستوى جامعة القاهرة وجامعة تونس وجامعة فاس، وكانت تضم آلاف الطلبة المسلمين.

واجه الاستعمار الفرنسي لبذل كل ما يستطيعه من أجل تدمير المجتمع الجزائري وتكوينه تكويناً جديداً يستجيب لأهدافه ويحمله نحو وجهة جديدة. واعتمد خطة هدامة ذات أتجاهين: أولها تعليم الجهل. وثانيها: نشر ثقافة فرنسية استعمارية. والهدف من الخطة هو القضاء على الثقافة الإسلامية واجتثاثها من جذورها. وتحرير الجزائريين المسلمين بالتالي من تراثهم القومي بغير القضاء على كل وعي وطني أو شعور بانتظامهم إلى شعب عظمته له ثقافته الرائعة وحضارته المميزة. وفي إطار هذه الخطة، عمل الاستعمار الفرنسي على إغلاق المدارس وتشتت الطلاب، وحل المنظمات الخيرية الدينية التي كانت تشرف على حركة التعليم، ومصادرة أموالها (الأوقاف)، والقضاء على قواعد التعليم (المساجد). واعتبار اللغة العربية التي هي اللغة القومية لغة أجنبية - بموجب القانون وتحريم تدريسها. ولقد طبق في
الجزائر نظام تدريس أشبه ما يكون بالنظام المطبق في فرنسا، وهو نظام لم يطبق في أي مستعمرة أخرى غير الجزائر.

كما أنه حرم على الجزائريين المسلمين اتباع أي نظام تعليمي آخر. وحظر تعليم اللغة العربية أو التاريخ الوطني أو الاطلاع على الحضارة العربية - الإسلامية؛ هذه الحضارة التي ترتبط بها الثقافة الجزائرية ارتباطًا وثيقًا. وظل التعليم بين سنة 1930 - 1944 بالنسبة للطلاب الجزائريين معدومًا أو شبه معدوم، بينما كان عامةً بالنسبة للأوروبيين. فالمدارس لا تقبل سوى عدد محدود جداً من الطلاب الجزائريين، وعلى شك شكل تمييز في معظم الأحيان من ترضي عنهم الإدارة الفرنسية. غير أن هذه الأقلية الضئيلة جداً قد روع وجودها في المدارس السكان الأوروبيين، كما تبنته هذه الوثيقة التي تبناها مؤتمر المستعمرين في الجزائر سنة 1908.

وتضمنت الوثيقة ما يلي: «... اعتقاداً منا بأن تعليم الوطنيين في الجزائر إما ينطوي على معايير حقيقية، سواء في المضمات الاقتصادي، أو بالنسبة للمستوطنين الأوروبيين - الفرنسيين - فإن المؤتمر قد أعرب عن رغبته في إلغاء التعليم الابتدائي لؤلؤة الوطنية وإلغاء نهائياً. وتجدر الإشارة إلى أن عدد الطلاب المسلمين الجزائريين المقبولين في المدارس خلال تلك الفترة، لم يكن يتجاوز (41،581) ألف طفل من أصل (3000) طفلاً كانوا في عمر الدراسة.

لم يستسلم مسلمو الجزائر لهذه المخططات، وقاموا بالرغم من كل الضغوط والظروف السيئة ببذل كل جهد ممكن للمحافظة على وجودهم من خلال تمسكهم بكتاب الله وإيقاعهم على التعليم.
الإسلامي العربي. وقام شيوخ المسلمين في الأغواط وميزاب وقسنطينة بنشر التعليم، كما عملت جمعية علماء مسلمي الجزائر -عبد الحميد بن بديس وإخوته في الله - على إرساء القواعد الإسلامية الثابتة ونشر التعليم الإسلامي والثقافة العربية، وأخذت مخلصة هذه الجهود في إعطاء ثمارها على شكل نهضة ثورية شاملة. شعرت فرنسا بخطورة الموقف، فأوقفت منذ سنة 1944 بذل محاولات جديدة لاستعادة المبادأ، والقضاء على المدارس الخاصة، وذلك بفتح أبواب المدارس للتعليم الإبتدائي في المدارس الرسمية - الإفرنجية -. وزاد عدد الطلاب الجزائريين في هذه المدارس، غير أن عدد الطلاب الذين لم تستوعب المدارس لقبوهم بقي بسلا. وذلك لأن الإدارة الإفرنجية لم تعمل على زيادة عدد المدارس أو بناء مدارس جديدة، وكلما فعلته هو أنها اخترعت نظام المدارس التي تعمل بنصف دوام (الدوام النصفي) الذي يحقق هدفاً مزدوجاً: الأول: تخفيض مستوى التعليم - تعميم الجهل بالتعليم. والثاني: استيعاب أكبر عدد من الطلاب لمقاومة جهد المدارس الإسلامية الخاصة وحرمانها من التطور. أما المدارس الإبتدائية التي كان يتم افتتاحها جديداً، فكانت تخصص لأطفال الأوروبيين، وهذا ما تؤكده الإحصاءات الرسمية التي أعلنت سنة 1953. و جاء فيها ما يلي:

1 - التعليم الإبتدائي:

- الطلاب الجزائريون (269,000) ألف طفل سجلوا من أصل
(1,679,000) طفل في سن القبول، أي أن نسبة الذين بقوا خارج المدارس من هؤلاء الأطفال هي (86.5%) بالمثلة.
- الطلاب الأوروبيون (135) ألف طالب، هم جميع أولاد الأوربيين.

2 - التعليم الثانوي:
الطلاب الجزائريون (69) طالباً من أصل 12 مليون نسمة.
الطلاب الأوروبيون (24) ألف طالب من أصل (800) ألف أو حتى (900) ألف نسمة.

3 - جامعة الجزائر:
الطلاب الجزائريون (507) طلاب.
الطلاب الأوروبيون (5132) طالباً.

وفي مجال التعليم الفني (المهني) فقد أنشئت معاهد عامة للتعليم الزراعي، ومعاهد متوسطة ومدارس ابتدائية. ولم يكن المعهد الزراعي العالي يضم ولوجزائريباً واحداً في عدد طلابه. وكان عدد الطلاب في بقية المعاهد - من الجزائريين والإفروسيين على النحو التالي:

<table>
<thead>
<tr>
<th>العربية</th>
<th>الفرنسية</th>
<th>المدارس الزراعية</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>33</td>
<td>30</td>
<td>مدرسة فيليب فيل</td>
</tr>
<tr>
<td>44</td>
<td>30</td>
<td>مدرسة عين طموشنت</td>
</tr>
<tr>
<td>82</td>
<td>37</td>
<td>مدرسة سيدى بو العباس</td>
</tr>
<tr>
<td>55</td>
<td></td>
<td>مدرسة الجبل</td>
</tr>
<tr>
<td>30</td>
<td>30</td>
<td>مدرسة المختاراس</td>
</tr>
<tr>
<td>138</td>
<td></td>
<td>المعهد العالي الزراعي</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>74</td>
<td>المجموع</td>
</tr>
<tr>
<td></td>
<td>382</td>
<td></td>
</tr>
</tbody>
</table>
وتتكرر هذه الظاهرة في التعليم الصناعي، حيث يلاحظ تناقص عدد الجزائريين كلهما رتفاع المستوى التعليمي وفقا لما تشير إليه دراسة إحصائية للسنة الدراسية 1954 - 1955 وهي كالتالي:

<table>
<thead>
<tr>
<th>المدارس الصناعية</th>
<th>الفرنسيون</th>
<th>الجزائريون</th>
</tr>
</thead>
<tbody>
<tr>
<td>مركز التدريب</td>
<td>3000</td>
<td>3600</td>
</tr>
<tr>
<td>فروع التعليم المهني</td>
<td>660</td>
<td>300</td>
</tr>
<tr>
<td>الثانوية الصناعية</td>
<td>155</td>
<td>300</td>
</tr>
<tr>
<td>المعهد العالي الصناعي</td>
<td>314</td>
<td>11</td>
</tr>
<tr>
<td>المجموع</td>
<td>5524</td>
<td>4211</td>
</tr>
</tbody>
</table>

لقد كانت شريعة محاربة التعليم في الجزائر مجددة بما أعلنه المستوطنون الفرنسيون، في محافذة الحكومة الفرنسية سنة 1894، عندما فكرت هذه الأخيرة في تطور التعليم في الجزائر، فطرح المستوطنون مقولتهم التالية: «لا حاجة لبناء المدارس وإنشائها للبرهاة على قوتنا وقدرتنا، فالكرم لا نفع منه في بلاد تذكر الجميل». وبيقت هذه المقوله هي الشرعه السائدة في الجزائر طوال عهد الاستعمار.

***

لقد أخذت الأعلام الاستعمارية في الدفاع عن فرنسا الاستعمارية، وتحمل كل سوءات الاستعمار وعيوبه للمستوطنين. غير أن مثل هذه المحاولات لتبزرة الاستعمار الفرنسي ومحاولة منحه "شهدته حسن سلوك" هي محاولات فاشلة. ذلك أن كل البراهين والشواهد تؤكد حقيقة واحدة وهي أن الاستعمار الاستيطاني في
الجزائر لم يكن الا وسيلة لضمان السيطرة الاستعمارية، وتأميناً للنهب الاستعماري. وقد قام هذا الاستعمار الاستيطاني بواجهة على أكمل وجه في تنفيذ المخططات الاستعمارية الإفرنجية. وكان لا بد للمستوطنين من امتيازات مقابل الخدمات التي كانوا يقدمونها للوطن الأم. وعلى هذا فمن المحال فصل الاستعمار الإفرنجي عن أجهزته التنفيذية والمتمثلة بالاستعمار الاستيطاني. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد تعاقب على حكم فرنسا منذ استعمارها للجزائر سنة 1830 وحتى الثورة المباركة للجزائر في سنة 1954 أنظمة امبراطورية وملكية وجمهورية، يمينية،يسارية، وكلها سلكت خطأ ثابتاً تجاه الجزائر. أليس في ذلك ما يدين فرنسا الاستعمار وفرنسا الدولة؟ علاوة على ذلك، فقد حاول الجزائريون منذ استعمار فرنسا لبلادهم أن يعملوا على إصلاح المفسد بالتوجه الى الحكم الإفرنجي - في باريس مباشرة. وكانت هذه المحاولات تصطدم دائماً بدافع فرنسا الطويلة. ولقد بقي هذا الحلم الخادع، والسراب المضلل، أمل أولئك الذين نشأوا في أحذان "المدرسة الإفرنجية" ونادوا بدمج الجزائر بفرنسا. وهم يفصلون في محاولاتهم تلك بين الاستعمار الإفرنجي وجهازه التنفيذي (الاستعمار الاستيطاني) حتى تبين لهم في النهاية صعوبة إجراء مثل هذا الفصل، ولم يجدوا أمامهم في النهاية غير طريق الثورة.

وبعد، قد يكون من الصعب في هذه المجالة، عرض كل ملامح الجزائر عشية ثورتها، سواء في مجال التمييز المنصري بين المسلمين الجزائريين، والعنصرين الإفرنجيين، أو في مجال التمييز في الوظائف والخدمات - وحتى الخدمة في الجيش - أو في مجال الرعاية الصحية.
ولعل ما سبق طرحته هو أمر كاف لإيضاح صورة الموقف وتقسيمها على كل مرافق الحياة العامة والخاصة، وعندئذ يمكن القول: كم احتمل شعب الجزائر من عنت الاستعمار وظلمه؟ ولرب قائل بأن البيانات السابقة، والمعلومات الواردة، قد تجاوزها الزمن، وأصبحت في ذمة التاريخ. وكان بالمستطاع تنسي تلك الآلام والمساوي لم توفرت الحرب فعلاً، وانتهى الصراع حقيقة. غير أن الصراع لم يتوقف ولو أن وسائله قد نطورت. وعلى هذا يجب ألا ننسى أبداً، يجب أن نتذكر دائمًا، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن جيل الأبناء يجب عليه أن يعرف ما هو الاستعمار، وكم عاني الآباء والأجداد من قسوة الاستعمار ووجهيته، وعندئذ سيحرص جيل الأبناء على استقلاليته بقدر ما يتناسب مع جهود السلف وضحياتهم.
ليس هدف البحث في هذا القسم إجراء دراسة عامة وشاملة للجغرافية الجزائرية. إذ أن بلوغ هذا المطمح أمر عسير في بحث يركز بالدرجة الأولى على الثورة الجزائرية، وظروف انطلاقتها، ولكن إذا كان من الصعب تحقيق ذلك، فلا أقل من إعطاء فكرة وجيزة قدر المستطاع عن طبيعة مسرح الأعمال القتالية الذي شهد أحداثاً مثيرة في حرب ضارية استمرت سبع سنوات.

تشكل الجزائر، على ما هو معروف، القسم المتوسط من المغرب الإسلامي - العربي والذي أطلق عليه العرب قديماً اسم "جزيرة المغرب"، ذلك أن البحر المائي يحد هذه الجزيرة من الشرق والشمال والغرب ويحدها البحر الرملي من الجنوب. وتمت الجزائر فوق مساحة تزيد على المليونين من الكيلومترات المربعة، وتتصل في حدودها الشرقية مع تونس وليبيا، وفي حدودها الغربية مع المغرب وموريتانيا وفي الجنوب مع النيجير ومالي. وتميز ظواهر الطبوغرافية للجزائر بمظهرين أساسيين هما: سلاسل جبلية في الشمال، ممتدة، تتحضر

(1) تم الاعتماد في هذا القسم، وبالدرجة الأولى، على كتاب "جغرافيا الجزائر", للاستاذ: خليفة عبد القادر علي.

49
بين فكيها أراض مرتفعة تسمى بالنجدود. وفي الجنوب قاعدة عظيمة متسعة الأرجاء، فيها سهول حقيقية، وجبال بركانية، وكتبان رملية وهضاب صخرية. والانحدار العام لإقليم الشمال الجزائري يتجه من الجنوب إلى الشمال في أغلب الأجزاء.

ويظهر ذلك بوضوح إذا ما تم أخذ مقاطع مختلفة تمتد من الساحل حتى جبال الأطلس الصحراوي. ثم أجريت المقارنة فيها بينها. وعلى سبيل المثال، فإذا ما أخذ مقطع يبدأ من وهران إلى العين الصفراء، ماراً بجبال الضاحية فجبال عتشر، (انظر المقطع A) حيث يظهر أن منطقة العين الصفراء يزيد فيها الارتفاع عن الألفي متر ( جبل عيسى بالقرب من العين الصفراء ارتفاعه 2232 متر) بينها جبال تاسالا بالقرب من وهران لا يزيد ارتفاعها عن الألفي متر إلا قليلاً، أي أن الارتفاع في الجنوب يفوق الارتفاع في الشمال بالضعف. وهذا كانت الأودية في الشمال الغربي من الجزائر تنحدر من الجنوب إلى الشمال، مثل وادي الشلف الذي يأخذ منبحة من جبال عمرور. وكذلك الأمر بالنسبة للانحدار العام في إقليم شمال شرق الجزائر، حيث يتجه هذا الانحدار من الجنوب إلى الشمال (كما يظهره المقطع C) الذي يبدأ من رأس بوفرعون، وينتهي عند أقدام السفوح الجنوبية من جبال أوراس، ماراً من الشمال إلى الجنوب بجبال القبائل الصغرى (نوميدية) التي يقل ارتفاعها عن الألفي متر، ثم الوادي الكبير، ثم شطابه، ويزيد ارتفاعها عن الألفي متر، ثم هضاب البحيرات التي لا يزيد ارتفاعها على الألفي متر، ثم جبال الأوراس. وهنا يتم الوصول إلى منطقة يشهد فيها الارتفاع، إذ يزيد على الألفي متر. ويظهر ذلك الشبه الشديد بين هذا المقطع وبين

50
المقطع الوهرياني في انحداره العام. أما المقطع الثالث الذي بينه
الشكل (ب) والذي يبدأ من "دلس" إلى "بسكره" ماراً بوسط
الجزائر، فلا يشبه المقطعين السابقين في انحداره العام. إذ بدل أن
يكون من الجنوب إلى الشمال، فهو يتجه من الشمال إلى الجنوب،
فمثالًا في جبال جرجره التي يزيد ارتفاعها على الألفي متر، ثم جبال
البيبان (1864 م) ثم جبال ونوة (1417 م)، ثم إقليم الحضنة
الذي يقل ارتفاعه عن (500 م)، وهذا الاتجاه في الانحدار هو
الذي جعل الأودية التي تصرف جبال الأطلس الصحراوي في هذه
المنطقة، والتي تنحدر من جبال الحضنة، تصب في شط الحضنة،
وأغلبها متجهة من الشمال إلى الجنوب، بعكس أغلب أودية الجزائر
الشمالية. ولقد ساعد هذا الانخفاض في اقليم بسكرة على جعل
مدينة بسكرة بوابة الصحراء، منها كانت تمر القوافل التجارية التي
تربط بين الشمال والجنوب. ومن الملاحظ على جبال الجزائر أنها غير
متصلة بعضها ببعض، وغير متقاربة في الارتفاع، وهذا كان إطلاق
اسم سلسلة جبلية عليها ضرباً من التسامح، إذ هي جبال متقطعة،
أو أرداف دائرية الشكل تنماسى مع خط مستقيم، أو قباب تفصل بينها
جروف تحتها مياه الأمطار الغزيرة. وأفضل منطقة تظهر بها هذه
الجروف هي منطقة الأخضرية (بالسترو) حيث يظهر وادي يسر وقد
شق طريقه في جبال الأخضرية الشاهقة، وتحت مياه الوادي
التكوينات السطحية اللينة ثم تعمقت إلى أن بلغت الصخور
الغرانيتية التي أخذت في إزالتها أيضاً. وبدلاً من أن يأخذ النهر في
توسيع مجاره، راح يعمقه، حتى كأنه سيف انصب على الجبل فشطره
الشطرين شديدي الانحدار. وتظهر هذه الحالة ذاتها مرة أخرى
بوادي الرمل في مدينة قسنطينة، الذي يشق طريقه بين حافتين شديدة الانحدار من صخور جيرية صلبية. وكذلك وادي اقيرو - بشعبة الآخرى. يختلف الانحدار العام في شمال إقليم الصحراء عنه في جنوبه. فهي المنطقة المتناحرة لسفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي، يأخذ الانحدار العام من الشمال إلى الجنوب، وأما في الجهات الجنوبية الشرقية، فانانحدار العام من الجنوب إلى الشمال، كما يبينه وادي د إيفارغار، الذي يأخذ منابعه من جبال الهوقار، ويتوجه نحو الشمال. يمكن تقسيم الجزائر إلى خمسة أقاليم تضاريسية متباينة هي من الشمال إلى الجنوب: 1- إقليم الشواطئ، 2- إقليم الأطلس النهري، 3- إقليم جبال الأطلس الصحراوي، 4- إقليم النجود، 5- إقليم الصحراء.

آ- 1- إقليم الشواطئ: وهو الإقليم الفاصل بين البر والبحر، أو ما يسمى بسيف البحر. ويتمتد الشاطئ الجزائري على شكل خط متموج يبلغ طوله من غرب الغزوات حتى شرق القالة مسافة (1200 كيلومتر تقريباً). ويعتبر الشاطئ الجزائري بكونه صخرياً صلبًا يمتد على طول الساحل موازياً للاتجاه العام لسلسلة الأطلس النبطي من الغرب إلى الشرق بصفة عامة. ولا تسمح طبيعة هذا الشاطئ الصخري بظهور الموائع الطبيعية التي تحمي البواسط الطبيعية من تحرك الماء البحرية. وهذا كان من الضروري بناء كمارات الأمواج التي تتحكم فيها الأمواج بدلاً من تخطيطها على جدران البواسط، كما هو الحال في ميناء الجزائر الذي تحيط به سدود تفصل بين مياه عرض البحر المتحركة والمياه الساكنة للميناء. ويهيئ الجدار الصخري المتمثل في خط الالتقاء بين البر والبحر، وهو يختفي
في معظم الأحيان فجأة داخل الماء. أو هو يرق إلى أن يتحول إلى حاشية دقيقة لا تزيد عن كيلومترات قليلة. وهذا نجد إقليم الرصيف القاري - وهو إقليم الحياة الحيوانية والنباتية المائية ضيقاً للغاية في الجزائر بخلاف ما هو عليه هذا الرصيف في إقليم الشاطيء التونسي أو المغربي - المراكيشي -. فخط عمق (2000 م بالبحر لا يزيد بعده عن الساحل الجزائري بأكثر من خمسين كيلومتراً. بينما هو يبعد بأكثر من هذا في الإقليمين الآخرين من المغرب العربي. فالرصيف القاري التونسي واسع جدا. ولو كان طول الإنسان (50 مترًا، لاستطاع أن يخوض البحر راجلاً من جزيرة جزيرة جزيرة قرقة في وسط البحر. ولو كان طويل ألف متر لاستطاع أن يسافر من رأس بون إلى جزيرة صحيلة راجلاً دون أن يحتاج إلى ركوب سفينة. أما في الجزائر، فلا بد أن يزيد طول الإنسان الذي يريد قطع البحر راجلاً من الجزائر إلى مرسيليا على الألفي متر. وتتوقف الثروة الحيوانية والنباتية البحرية على اتساع الرصيف القاري (أو المنطقة البحرية التي يقل عمقها عن مئتي متر). وهذا هو السبب في أن البلاد التونسية أغني من الجزائر في صيد الأسماك. وتتداخل الشاطيء الجزائرية ظاهرة الخلجان التي تشبه أنصاف الدوائر، مثل خليج وهران، وخليج أرزبو، والجزائر، وبجيا، وسكيكدة وعنابة. وكل هذه الخلجان مفتوحة أمام الرياح الغربية، وتيار البحر الأبيض المتوسط القادم من جبل طارق، الذي يحمل بين طياته رواسب يلقي بها على الحافات الشرقية أو الجنوبية للخلجان. ولذلك، فمن الملاحظ أن الموانئ الجزائرية تقوم على الحافات الشرقية أو الجنوبية للخلجان حتى تكون بعيدة عن رواسب التيار البحري. ولا تتعمق هذه الخلجان إلا قليلاً داخل اليابس

53
(أ) ما عدا خليج بجاية الذي يعتبر أكبر خليج في الجزائر. والى جانب الخليلان تظهر الروس المتعمقة داخل البحر، والمنتشرة من الغرب الى الشرق على طول الساحل، ومن أهمها: رأس ملوبة عند الحدود الجزائرية المغربية، ثم رأس فالكون غرب الرمسي الكبير، ورأس فرات وكربون بالقرب من أرزوي. ورأس تنس والعموسي قرب مدينة شرشال، ورأس البرج البحري الى الشرق من مدينة الجزائر، وكافالو إلى الشرق من بجاية، وكاربون الى الغرب من بجاية. أما خليج سكيكدة فينحصر بين راسين، أحدهما في الشرق وهو رأس الحديد والثاني في الغرب وهو رأس بوقرعون. وإذا تقدمنا الى الشرق نجد رأس الحارس بالقرب من عتبة. وروزا وروكس بالقرب من الحدود الجزائرية-الفرنسية. وهذه الروس الممتدة من الغرب الى الشرق منارات لإرشاد السفن. وتزدهر فيها الحياة النباتية.

وقد بنيت عليها المدن، واستصلحت أراضيها، وزرعت بها أشجار الفواكه والخضار، وأصبحت مكتظة بالسكان. وهي تمتلك مواقع جيولوجية رئيسية، تتم فيها مراقبة البحيرات البحرية في البحر الأبيض المتوسط. وسها أقيمت مراكز البحريات لدراسة الشواطئ الجزائرية. وتمثل بعض هذه الروس فوهات بركانية: مثل رأس الحديد، ورأس بوقرعون ورأس كافالو، ورأس البرج البحري.

آ- 2- اقليم الأطلس الثاني: وهو إقليم يضم سلاسل جبلية متعددة من الغرب إلى الشرق موازية للشاطئ الجزائري، ويضم أيضاً السهول التي تقسم إلى سهول ساحلية منخفضة وسهول داخلية مرتفعة وهي سهول متقطعة محدودة بين الجبال. وأشار السهول الساحلية:

آ- سهل وهران: ويتند إلى الجنوب من مدينة وهران، بادأ من عين
ب - سهل متيجة "متوهجة"، ويعتبر امتداداً طبيعياً لسهل وهران، لا يفصل بين السهلين إلا منطقة جبلية ضيقة بالقرب من ميامنة. ويثود سهل متيجة من الجنوب أطلس البليدة (الذي يسمى أيضاً بالأطلس المتيجي)، ويمتد من غرب حجاز حتى جبل "بوفرقة". ويثود سهل متيجة من الشمال جبل بوزرعة، أو الحافلة الجبلية المرتفعة والمتمدة على شاطئ البحر من مدينة الجزائر حتى شرشال. هذا في الجهات الغربية، أما إلى الشرق من مدينة الجزائر، فيكاد السهل المتيجي يشرف على البحر، لولا ظهور روابي رملية ضيقة تفصل بين البحر والسهل. ويطلق على الحاشية الرملية من الرواب اسم "الساحل" ابتداء من الخراش حتى وادي "بودواو" والسهل المتيجي ضيق لا يزيد عرضه على ثلاثين كيلومتراً، أما طوله فيزيد على مائة كيلومتر.

ج - سهل عتابة: ويدعو شمالاً جبال أيدوغ والبحر الأبيض المتوسط وغرباً جبال القبائل الصغرى "نوميديا" وجنوباً جبال سوق...
أهراش. وشرقاً جبال مجرده وتنتشر به البحيرات، ويجري به وادي السيبوس.

هذه هي أهم السهول الساحلية المتنوعة المشهورة بالغلال والخضرة والبساتين والكروم، أما السهول الداخلية المرتفعة فهي للحبوب ومن أهمها:

السهل تلمسان: يرتفع (737) متراً عن سطح البحر. يقع عند أقدام السفوح الشمالية لجبال تلمسان، وهو سهل كثير الخيرات بسبب وفرة مياهه، وخصوصية تربته (المارنية).

السهل بلعباس: يرتفع (583) متراً عن سطح البحر، ويشتهر بالحبوب وزراعة الكروم.

الفشة تيارت (أو السرسو): المنحصر بين جبال الونشيريس شمالاً وجبال فرندو والشلالات جنوبًا.

سهل عين بسام: وينحصر بين جبال تيطري جنوباً والبليدة شمالاً.

هـ-سهل قسنطينة: يمتد من غرب مدينة سطيف غرباً، حتى جبال أهراش شرقاً، وهو أعظم سهل داخلي تكره به زراعة الحبوب والقمح الصلب بصورة خاصة. وتقع هذه السهول كلها على ارتفاع يزيد على خمسمئة متر وهي أقرب إلى النجود منها إلى السهول.

* * *

أما بالنسبة لسلسلة الجبال التلية، فهي تمتد من الغرب إلى الشرق، بادئة من جبال تلمسان بالحدود الجزائرية-المغربية، ومنتهية
بجبال سوق أهراس بالحدود الجزائرية-الفرنسية. يمكن تقسيمها إلى كتلة جبال غربية وكتلة جبال شرقية، تفصل بينها جبال مليانة وأوزكار. وهذا التقسيم على أساس النضج والتطور والانتشار. ذلك أن كتلة الأطلس التلي الشرقي أكثر اتساعًا من كتلة الأطلس التلي الغربي. ثم إن قمم الكتل الجبلية الشرقية أخذت تتشكل والأزديم تسير بها في شكل عرضي. والأحواض الداخلية مقررة للغاية. كما هو الحال في حوض قلعة. وتدل هذه الظواهر الطبيعية كلها على أن تطور التضاريس في الجهات الشرقية أكثر وضوحًا مما هو عليه في الجهات الغربية التي ما زالت تظهر بها القمم العالية ذات الأطراف الحادة، والأحواض المملحة التي لم تصرف بعد ولم تتم بالروااسب. ويعود سبب تطور التضاريس في الشرق، أكثر منها في الغرب إلى الأمطار التي تنزل في الإقليم الشرقي أكثر منها في الإقليم الغربي، وليس السبب في أن جبال الإقليم الشرقي أقدم في تكوينها وظهورها من جبال الإقليم الغربي.

تبدأ الكتلة الجبلية الغربية بجبال تلمسان، وهي الحد الفاصل بين جبال الريف بالمغرب، وجبال الأطلس التلي بالجزائر، ويبلغ ارتفاعها (1824 م) وتن تكون في معظمها من صخور جيرية. ثم إذا تقدمنا شرقًا اعترضا جبال تاسالا (1201 م) وهي التي تحد شمالًا سهل بلعباس المرتفع، أما جنوبًا فتحده جبال الضمانة (1417 م) ثم تعترضا شرقًا جبال سعيدة (1288 م) وهي الحد الجنوبي لسهل معسكر المرتفع. وإلى الشرق من الجبال السابقة نجد جبال فرندة (1132 م) ثم جبال الونشريس (1985 م) والظهرة (1071 م) وجبال زكار (1579 م) ويتكون أعظم هذه الكتلة الجبلية من
صخور جيرية، متميزة بشدة التوائها، وظهورها أحياناً في شكل أسفاط أو قشور الأسماك. وإلى الشرق من جبال زكار تبدأ كتلة الجبال الشرقية - التي تبدأ بجبال البليدة (أو الأطلس المتيجي) الذي يبلغ ارتفاعه (1977 م) وهو من صخور الشيست والمارن، تكثر به ظاهرة الأسفاط من شدة الالتواء الذي تعرضت له المنطقة. وإلى الشرق من جبال البليدة يرتفع جبل بوزقرة إلى ألف متر، وهو من صخور جيرية. ثم تأتي جبال جرجرة وهي من صخور جيرية مشققة أو هضاب قديمة تبلغ أقل قمة بها (وهي قمة لاله خندية 1328 م)، ثم جبال البابور (2004 م)، وهي كذلك من صخور جيرية. ثم هضبة القل (1090 م) وجبال إيدوغ (1088 م) الذي يتكون من صخور قديمة جداً، مثله كمثل منطقة أربعاء بني راتن بهضبة جرجرة، وجبال بوزريعة الذي تقوم عليه مدينة الجزائر العاصمة.

تظهر إلى الجنوب من كتل الأطلس التلي الشرقي مجموعة من الكتل الجبلية الأخرى التي تسير موازية للجبال السابقة، وتتكون من طبقة رسوبية سميكية من الشيست، تتخللها تكوينات حلوة أو طينية أو مارنية، من أهمها جبال تيطري (1338 م) التي تصل بجبال الببيان (1417 م) وهذه الأخيرة تظهر بقليلها الصخور الجيرية والكوارتزية. ثم جبال فرجيوه، بالقرب من فج مزالة، ثم جبال نوميدية (أو جبال قسطينة - 1469 م) إلى الشمال من مدينة قسطينة، وجبال سوق أهراس أو مجرد (وتن تكون جبال فرجيوه وقسطينة من صخور جيرية مشققة).

30 إقليم النجود: وهو يشمل المنطقة الممتدة من جبال التندارة فربأ إليها منخفض الحضنة شرقاً. حيث يتسع الأطلس التلي ويمتد إلى
الجنوب ليلتقي بالأطلس الصحرائوي. وتتم أراضي النجود في شكل طولاني بين السلسلتين الأطلسية الشمالية والجنوبية. وهي أقل ارتفاعاً منها، تسير من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي على طول ٧٠٠ كيلو متر. متبعة في ذلك الاتجاه العام لسلسلة جبال الأطلسي الصحرائوي (وتشبه في وضعها هذا ساحة البيت العربي حيث يشكل الأطلس التلي جدارها الشمالي، ويشكل الأطلس الصحرائوي جدارها الجنوبي) وبذلك فهي منطقة ذات صرف داخلي، أوديتها تصب في الشطوط ما عدا الوادي الطويل. ويتوجه الانحدار العام لإقليم النجود من الغرب إلى الشرق متبناً في ذلك سلسلة الأطلس الصحرائوي وتبين ذلك في المقارنة بين الشط الغربي والمناطق الواقعة إلى الشرق منه. فالجهات الغربية من النجود يتراوح ارتفاعها بين الالف والألف ومائتي متر، في حين يتراوح ارتفاع الجهات الوسطى بين سبعمائة وثمانمائتي متر. أما شط الحضنة فيقل ارتفاعه عن أربعمئة متر. وكما أن الجهات الغربية أكثر ارتفاعاً من الجهات الشرقية فإنها أكثر اتساعاً. فمسافة بين الأطلس التلي والصحرائوي في الجهة الغربية تزيد عن مائة وخمسمائة كيلو مترًا. وأما من الناحية الشرقية فتقل عن خمسين كيلو مترًا. وبحسب هذا الوصف تكون أرض النجود أشبه بثلث قاعدته الحدود الجزائرية المغربية، وقمةه شط الحضنة. وهو عبارة عن نرف عظيم، أو هضبة واسعة تنتملها الانكسارات التي أصابت الإقليم في فترة تعرضت فيها جبال الأطلس للالتواء. ذلك أن صلابة الصخور التي تكون منها أراضي النجود أدت إلى انكسارها عندما تعرضت للضغط. ويمكن ملاحظة ذلك بسهولة خلال الشقوق
وسطح الانكسارات التي لم تمتلئ بعد بالرواسب، مثل فالق غار الروبان الذي يستخرج منه الرصاص بالقرب من الحدود الجزائرية - المغربية.

يقطع أرض النجود في شكل طولي من الجنوب الغربي، نحو الشمال الشرقي، كل من جبال عنتر التي يصل ارتفاعها إلى (1508 م) وجبيل سبع رؤوس (1411 م)، وهو يفصل بين منخفض يوكرول في الجهات الشمالية، وارتفاعه (400 م) ومنخفض الزاغز الغربي في الجنوب، وارتفاعه (800 م). وما عدا هذه الجبال والانكسارات، يظهر سطح أرض النجود في شكل اتفاقي واسع تخلخله روافد تكونت نتيجة لترحح المنطقة نحو الجنوب الغربي، وتظهر أحوال مغلقة وشطوط واسعة، وزواعز ضيقة في النجود أيضاً. أما الأحوال المغلقة فتكسوها طبقة صياح كثيفة، ثمولها مياه الأمطار في فصل الشتاء ثم تنبعث في فصل الصيف، تازرة وراءها نسبة قليلة من الرطوبة، عليها تقوم الحياة العشبية، والشطوط الواسعة أو الضيقة، وهي أحوال مغلقة أيضاً، تتجمع فيها مياه الأمطار المحملة بالجزرات الملحية والطينية الواردة من المناطق المجاورة لها في فصل الشتاء. وهو الفصل الذي يحتل فيه السبخة أكبر مساحة مكتملة. أما في فصل الصيف، فيشتت النبض، ويقل سطح الماء؛ وتضيق بالتالي مساحة الشط، وتتشتت ملحوة السبخة التي تبقى محافظة على نسبة من الماء المختلط بالملاح والطين، يشبه الحمامة، ويعلو الرذيب الذي هو نذير الخطر، يعني للناشئ من بعيد مظهر البحيرة العذبة، حتى إذا جاءه لم يجدها، بل وجد فخاً طبيعيًا تعرفه غزال النجود التي لا تقترب منه مهما أضناها الظماً. وأهم هذه الشطوط التي تنتشر
هنا وهناك على سطح إقليم النجود، هي: شط الخضنة، وتنصرف إليها مياه أودية أوداتيل والزاب من الجنوب، والشط الشرقي، وتنصرف إليه مياه السفوح الجنوبية لجبال الضماية، والسفوح الشمالية لجبال قطارة، ثم الشط الغربي، ويقع بالحدود الجزائرية - المغربية. وتنصرف إليه مياه جبال التندرا من الجنوب الغربي، ومياه سفوح جبال سيدي العابد من الشمال.

آ4 - الأطلس الصحراوي: تمتد جبال الأطلس الصحراوي على طول سبعمائة كيلومتر، من فجيج غرباً حتى إقليم الزاب شرقاً. وتتجه سلسلة الأطلس الصحراوي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي، فاصلة بين أراضي النجود في الشمال والكتلة الصحراوية القديمة في الجنوب. وهي حاجز للمرال الصحراوية، ولولاها لاكتشفت الرمال مناطق النجود، وربما وصلت إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط، كما هو الحال في الصحراء الليبية التي تصل ربما في بعض الأجزاء حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط. وتنتخل جبال الأطلس الصحراوي مرات ودروب، تتبوعها الأودية المحددة نحو البحر، وقد كانت هذه الدروب، وما زالت، تمثل الممرات الطبيعية للقوافل التجارية القادمة من الصحراو إلى إقليم النجود أو العكس. ونجد الطرق المعبدة الحالية والخطوط الحديدية كثيرة ما تسلك هذه الممرات الطبيعية لتصل بين الشمال والجنوب. أو بين إقليم النجود وإقليم الصحراء. ويزيد الأطلس الصحراوي في ارتفاعه، على ارتفاع الأطلس التلي - بصورة عامة - رغم قدمه في تاريخ تكوينه. ويعود السبب في ذلك إلى أن الأمطار في الإقليم التلي أكثر منها في
الإقليم الجنوبي، وبالتالي، فإن عملية النحت المائي والترسيب ونقل المواد المفتنة في إقليم الأطلس التي هي أنشطة منها في الأطلس الصحراوي، الذي كثيراً ما نجد عند سفح جبال المفتنة الصخرية المتراكمة التي تتناظر سيلاً جارفاً أو أمطاراً كافية لنقلها. أما الانحدار العام في هذا الإقليم الجنوبي فهو يتجه من الغرب إلى الشرق، كما تبينه:

ارتفاعات الجبال التالية:

1- جبال العين الصفراء، وأعلى قمة (قمة) بها تصل إلى (2436 م) وهي قمة جبل عيسى.
2- جبال عمور، وبها قلة (قمة) جبل الطويلة، التي يصل ارتفاعها الي (1937 م)، وبورقة (1959 م).
3- جبال أولادناويل: يصل ارتفاعها حتى (1500 م) بالقرب من الجلفة.

ويظهر ذلك بوضوح أن الانحدار يأخذ في التناقص، وتأخذ الجبال في الضمور، وهي تتجه من الغرب إلى الشرق، حتى تكاد تختفي عند هبسكرة التي تسمى عتبة الصحراء، أو الممر الطبيعي بين الشمال والجنوب. ولهذا مدط السكة الحديدية التي تربط بين "توفرت" و"قسنطينة" هذه المدينة. وخلال هذا الممر الطبيعي، إلى الشرق من مدينة بسكرة، يعود الارتفاع مرة أخرى بصورة مباغتة، ويشتد الانحدار، وتشير جبال الأوراس الشاغرة التي يبلغ ارتفاع أعلى قمة بها (وهي قمة أم كلوهوم 3239 م) وهي بذلك أعلى قمة جبلية في شمال الجزائر، لا في الجزائر كلها، حيث أن جبل تاهت بالهوفار يبلغ ارتفاعه (2918 م) وهو بذلك أعلى جبل في الجزائر كلها. وتشكل جبال الأوراس الواسعة من صخور جيرية شديدة الارتفاع، تنقى

٦٢
كمية كبيرة من الأمطار، إذا ما قورنت بجبال العين الصفراء.
وتخلل جبال الأوراس أودية متجهة نحو الجنوب، تعمل معها المفتات الصخرية. وتتبع في سيرها الالتواءات المفقرة، مثل وادي عبدى ووادي الأبيض، اللذين يجريان في الأطراف المحدبة لجبلي أحم خدوي والأزرق. ويتمثل جبال الأوراس بارتفاعها الشاهق، كتلة جبلية حاجزة بين الصحراوية ونوميديا. ويتآخذ عامل الارتفاع في التنافص مرة أخرى كلما توالت هذه الكتلة شرقاً. فجبال النمامشة لا يزيد ارتفاعها على ألف وخمسمائة متر. وكذلك جبال تيسة. وينعكس عند جبال الأوراس الاتجاه العام لسلسلة الأطلس الصحراوي التي تأخذ في الاندماج مع الأطلس التلي بالتدريج، إلى أن تقضي عليها عند منطقة "القالة" وتترجم بها عرض البحر. ويتكون اسمها إلى "جبال خني" في الأراضي التونسية، ثم جبال "مقعد" الواقعية في أقصى الشرق. ومن الملاحظ على سلسلة الأطلس الصحراوي، أنها ترتفع فجأة عند الارتفاع بالصحراء. أما عند خط الطبق الأطلس الصحراوي باراضي النجف، فيبدأ الارتفاع بالتدريج من الشمال إلى الجنوب، متمثلاً أولاً في الراوي، ثم الجبيلات، ثم الجبال الشاهقة. وتتميز الجهات الشرقية من الجزائر، بالجبال المعقدة القصيرة الامتداد. كما تتميز بعدم الثبات في الاتجاه العام، وظاهرة الانتقال من الروابي إلى الجبال، ومن الالتواءات المحدبة إلى الالتواءات المفقرة. ومن الأحواض المغلقة إلى السهول المفتوحة، وهذه هي الصفة السائدة في

5. اقليم الصحراء: تبلغ مساحة الصحراء الجزائرية (6,000,987,1) كيلومتر مربع، وبذلك تحتل مساحة قدرها

٦٣
تسعون بالمائة تقريباً من المساحة الإجمالية للقطر كله، والبالغة (2,195,100 كيلومتر مربع). والتركيب الجغرافي للصحراء أبسط من تركيب المنطقة التلية. إذ لا تظهر فيها الجبال المقطعة، ولا المرتفعات المعقدة، ولا السهول الضيقة المحصورة، ولا الالتواءات الحديثة. ولكن الصحراء تضم بالمقابل السهول النحائية الواسعة والأحواض المغلقة، والجبال بحافاتها الشديدة الانحدار، والعرق الرملية المتنقلة، ويمكن تقسيم الصحراء إلى أربع مناطق متبادنة:

أولاً: منخفض في الركن الشمالي الشرقي، تظهر به بعض الشطوط. مثل شط ملغوف، الذي يقع دون مستوى سطح البحر بحوالي واحد وثلاثين متراً. فهو أخفض مكان بالجزائر كلها.

ثانياً: منطقة هضابية صخرية على الأطراف الشمالية وفي الوسط، مثل هضبة تادمايتي، إلى الشمال من عين صالح.

ثالثاً: سهول نحائية تغطيها الرمال. وهي التي تحتل أكبر مساحة في الصحراء.

رابعاً: كتلة جبلية مرتفعة في الركن الجنوبي الشرقي، وهي جبال الهووار التي تبلغ أعلى قمة جبلية بها (2918م) وهي قمة تاهت برتفعات أتاكور إلى الشمال من مدينة تامنراست. وأغلب جبال الهووار ناجحة عن اضطرابات بركانية مازالت فوهةها بارزة للعيان. والجبال هنا لا تأخذ أشكال السلاسل الممتدة، ولكن الأشكال المخروطية. ولقد أصابت حركة التوائمة قديماً إقليم الصحراء، وأدت هذه إلى التواء سلاسل جبلية من
الشمال إلى الجنوب، ثم تعرضت الجبال لعملية النحت مدة زمنية كافية لتحويل هذه الجبال القديمة إلى هضاب وسهول تحتانية، تغطيها رواسب حديثة من رمال أو صخور، أتت بها الرياح في أغلب الأحيان. ذلك أن عملية التجوية الآلية الميكانيكية الناجمة عن الفوارق الحرارية الشديدة بين الليل والنهار، أدت إلى تفكك الصخور في منطقة الصحراء، وتحويلها إلى جزيئات دقيقة يسهل على الرياح نقلها من هنا وهناك، وتحويلها من مكان لأخر، لتنبيها بها أشكالا هندسية من براخين وأهلة. وتبرز في الصحراء ثلاث ظواهر تضاريسية متباعدة هي: 1- الحمادة. 2- الرق. 3- العرق. فالحمادة: هي الفضية الصخرية التي تغطيها صخور جيرية ممتدة في شكل صفائح طبقية. ومن أهم الحمادات في الجهة الجنوبية الغربية "حمادة الذراع" على الحدود الجزائرية الجزائرية. و"حمادة القلب" على الحدود الجزائرية الموريتانية. و"حمادة تاداميت" إلى الشمال من عين صالح.

أما الرق: فهو سهل صخري، أو حوض منخفض ملته السيول الجارفة بالرواسب الصخرية. وأخيرا - العرق: وهو يختلف عن الحمادة والرق في أنه سطح واسع الأطراف، تغطيه كثبان رملية تشبه أمواج البحر، جاءت بها الرياح من الحميدة أو الرق، وبهذا تكون رواسب العرق هوائية، والرق فيضية. وتحل العروق مساحة كبيرة من الصحراء الجزائرية حيث تنتشر في كل من الجهات الشرقية والغربية. ففي الجهات الشرقية، يظهر العرق الشرقي الكبير الذي يمتد من وراء الحدود الجزائرية - التونسية إلى المنخفض الذي يفصل بين هضبة "تاداميت" و "المنيعة". ثم العرق الغربي الكبير الذي

15
يبدأ من بني عباس غرباً حتى هضبة المنيعة شرقاً. و عرق الشيخ، و عرق العبد، على الحدود الجزائرية - الموريتانية.

** **

ب - وديان الجزائر

الوديان كا هو معروف - هي المجاري المائية التي تتحكم فيها أربعة عوامل أساسية هي: المناخ والتضاريس والترية والنباتات.

و على ضوء هذه العوامل تنمذمج المجاري المائية الجزائرية بعدم انتظامها في تصريف المياه. و يعود سبب ذلك إلى فصيلة الأمطار. ففي فصل الشتاء تنزل الأمطار في المناطق التي تأخذ الأودية منها ينابيعها. وهي أمطار غزيرة تنزف منها الأودية، وتكثر مياهها، وترتفع حمولتها حتى تصبح سيلولاً جارفة كثيراً ما تحرق الجسور وتعطل المواصلات.

وفي فصل الصيف تنعدم الأمطار وتخف الأودية، وتظهر بساحتها الرمال والحبس والثلج وقليل من الماء، إن كان بالوادي ينابيع.

ولا تصل هذه المياه القليلة إلى المصبات إلا بعد مشقة، نظراً لشدة التبخر التي ترفع في فصل الصيف، وعملية التسرب الجانبي للمياه في التكوينات الرملية المنفذة في مناطق جريانها. وتسير معظم أودية الجزائر في مناطق شديدة الانحدار، قريبة من مصباتها. وهذا كانت أقرب إلى السيل فيهما إلى الأنهار، حتى كان إطلاق كلمة أودية ينطبق عليها تمامًا، لأنها تفيض وتزيد يومًا، وتدأ شهورًا بسبب شدة الانحدار الذي يزيد من سرعة المياه الجارية، ورقة الغطاء النباتي وانعدامه في بعض الأحيان. مما يساعد المياه على تشكيل السيل الجارية للتربة وما بها. وتنقسم الأودية الجزائرية حسب الأماكن التي
تفرغ فيها شحنتها إلى أودية تصب في البحر المتوسط، وأودية تصب في أحواض مغلقة بمنطقة النجود، وأودية تصب في الصحراء:

بـ ١- الأودية الشمالية: وهي الأودية التي تصب في البحر الأبيض المتوسط (وتسمى بالأودية النيلية) وهي تتميز بما يلي:

* متوجهة من الجنوب إلى الشمال في أغلب اقضائها.
* تأخذ متابعتها من سلسلة الأطلس التي ما عدا وادي الشلف.
* مناطق صرفها أوفر مطرًا وأغنى نباتًا.
* يأخذ الوادي أسيا مختلفة باختلاف المناطق التي يمر بها. مثال ذلك وادي الشلف الذي يسمى بالوادي الطويل عند مروره بالنجود، ويسمى "بوادي الملاح" عند انحداره من جبال عمور، ووادي السبق الذي يسمى مجرى الأعلى "بوادي مكاره". ووادي يسر الذي يسمى مجرى الأعلى "بوادي الملاح". وأهم هذه الأودية من الغرب إلى الشرق:

١- وادي تغنة (أو تافنة). وهو ينحدر من جبال تلمسان، ومن مرتفعات تزيد على ألف وخمسين متر. ويرتفع من الجهة اليمنى وادي يسر، ومن الجهة اليمنى وادي أسلي. ويصب وادي تافنة إلى الغرب من مدينة بني صف، بعد أن يخترق جبال أثرارة، وبلغ طوله (١٧٠) كيلو متراً.

٢- وادي السبق والحمام. ويتسمى الأول بوادي مكارة عند انحداره من جبال الضماية على ارتفاع ألف ومائتي متر عند رأس الماء، ويتصل
وادي الحمام في منطقة تكثر بها المستنقعات تسمى بمنطقة المقطع. ويطلق وادي الحمراء أو الحمام من بوسا على ارتفاع ألف ومائتي متر أيضاً بجبل سعيدة. ولا تصل مياه السقي والحمام الى البحر إلا بعد مشقة، نظرًا لأنخفاض المنطقة بالقرب من مصبها. وكانت هذه المنطقة تمثل خليجًا بحرياً، وما زالت الرواسب القارية لم تعمل على ملءه وتسمية سطحه. ويبلغ طول كل من وادي الحمام والسقي (250) كيلومتراً.

3- وادي الشلف: وهو أطول واد بالجزائر، يبلغ طوله (700) كيلومتراً، ويبدأ لنائه حتى سلسلة الأطلس الصحراوي، ليأخذ منابعه بالقرب من مدينة آفلا وينتهي بالوادي الطويل عند مروره بإقليم النجود، من الجنوب إلى الشمال، ويحل اتجاهه من الشرق إلى الغرب عند اصطدامه بجبال زكار، فاصلاً بذلك بين جبال الونشريس في الجنوب وجبال الظهرة في الشمال. ولما كانت المنطقة التي يصرفها وادي الشلف واسعة، فإن المياه لا تنقطع من سريره، وترتفع عدة أودية ثانوية من الجنوب والشمال، ومن أهمها في الجنوب النهر الواصل الذي يصرف هضبة السرمو، وادي دردر والفسة، وسلي، وربيو، وميناء، وكلها تنحدر من جبال الونشريس، ما عدا وادي مينا الذي يأخذ منابعه من جبال فرند. و أما وادي الشلف الأوفر ماء من بقية أودية الجزائر، فقد بنيت عليه سدود كثيرة لري سهول الشلف، الممتدة من منطقة مليانة حتي مستغانم. ومن أهم هذه السدود سد الغريب وهو أعظم سد في القطر الجزائري، حيث يمكن أن يزن (280) مليون متر مكعب .

4- وادي الشفة: وينحدر من جبال الأطلس الميتيحي، كما يبلغ
خريطة المواصلات في الجزائر
وهو واد انيطاعي بالقرب من مصب ألي الحبر مدينة سيدي فرج ويرفده من الجهة اليسرى وادي دجر الذي ينحدر من جبال زكار. ويلتقي الواديان بالقرب من مدينة وادي العلايق في سهل متيجة. ومن هنا يتحول اسم الوادي إلى وادي مازفران، يشق طريقه خلال الحافة الجبلية الساحلية التي تفصل البحر عن سهل متيجة. وهي حافة ذات التواء محدب، تسير وشاطيء البحر من شرمال حتى الجزائر العاصمة.

5 - وادي يسر: ويبن من جبال نيطري على ارتفاع (1200 م) بالقرب من البروقيه، ويبن بالقرب من مدينة دلس. ويبن طوله (30 كيلومترا). ويبن طريقه في خط قائم الزاوية مع اتجاه جبال الليل. وهو واد انيطاعي في أكثر أجزائه، ويظهر هذا الانطباع بصورة خاصة في منطقة الأخضرية، حيث يجري الوادي وسط الصخور الصلبة من نايس وغرانيت. ولولا غزارة الأمطار التي يزيد متوسطها عليها (800 م) في منطقة حوض الصرف لما استطاع هذا الوادي أن يشق طريقه وسط الجبال، وأن ينحت بها جدرانه. يزيد ارتفاعها على المائة متر في خائق الأخضرية. ومن السهل ملاحظة عملية التوازن عند مصب وادي يسر، حيث انخفضت الأرض مساحة مائي متر تقريباً منذ عصر البلايوسين، بسبب تراكم الرواسب التي يلقي بها وادي يسر عند مرفضه، فازداد بذلك الثقل على طبقة السماء واختلى توازناها، فختف فيها الجزء الأسفل من قاعدة المصب، وقد أدى هذا إلى ارتفاع مناطق أخرى مجاورة لها لإعادة التوازن.

72
6 - وادي الصومام : ( وسمي بوادي الساحل أيضاً ) : وهو ينبع من جبال البيبان، ويرتفع من الجهة اليمنى - وفي أقسامه العليا - وادي بوسلام الذي يلتقي به بالقرب من مدينة « أقو » ، ويشتد انحدار وادي الصومام من مبتعه إلى مدينة البويرة، ثم يأخذ الانحدار في القلعة حتى يصل في هليج بجابة. ويجري وادي الصومام في سهل ضيق للغاية، ويبلغ طول الوادي ( 210 ) كم.

7 - الوادي الكبير، وسمي بوادي الرمل ( وقديماً وادي ابزاغة ) ويبلغ طوله حوالي ( 250 ) كيلو متر. ويأخذ مبتعه من جبال فرجيوه بالقرب من جبلة. ويصرف السفوح الجنوبية لجبال البابور، ثم يتجه من الغرب إلى الشرق حتى يصل إلى إقليم قسنطينة، فيتحول اتجاهه من الجنوب إلى الشمال، ثم يخترق جبال نوميديا الجرية، ليصب إلى الشرق من مدينة جيجل بحوالي ( 45 ) كيلو متر.

8 - وادي الصفصاف : ويبلغ طوله مائة كيلو متر، يصب في خليج سكيكدة، وينبع من منطقة « سمندو ».

9 - وادي السيبوس : ويتم لسانه حتى الجبل الأزرق الواقع على ارتفاع ( 195 م ) بالقرب من « عين البيضاء » وسمي مجرى الأعلى بوادي الشرقي برفده من جهاته اليمنى واليسرى عدة روافد من أهمها : وادي زناني الذي ينحدر من جبل « أم سطاس » بالقرب من « عين عبيد ». ويرتيح وادي السيبوس سهل عنابة، وهو لم يأخذ مجرى النهائي في هذا السهل حتى الآن، حيث يظهر وقد هجر مجرى القديم وانخرق إلى الغرب مسافة سبعة كيلومترات، بدليل الأذرع الميتة أو المجاري المهجرة التي تنتشر بالقرب من مجرى الأدنى الحالي. ويبلغ
طول وادي السيوس (232) كيلو متراً.

10 - وادي مجردة: وينحدر من جبال مجردة بالجزائر، ثم يمر باللاراضي التونسية، ليصب في خليج قرطاجنة بتونس. تلك هي أهم أودية الشمال، وهي كلها تصب في البحر الأبيض المتوسط.

وقد بنى على معظمها سدود لحجز المياه وري السهول الفيضية التي تجري بها.

****

ب - 2 - أودية النجود: وهي أودية الأحواض الداخلية، وتميز بقصرها. وشدة ذبذبة جريانها، وقلة مياهها عن الأودية السابقة، لأنها تصرف مناطق أقل مطرًا من مناطق صرف الأودية التالية. وتسير أودية النجود في اتجاهات مختلفة، حاملة معها في فصل الأمطار روابس كثيرة بها نسبة عالية من الأملاح التي تلقف بها في الأحواض المغلقة (أي في الشطوط أو الرواغز). وتشتهر عملية التبخير في المنطقة خلال فصل الصيف، وتقل مياه الأحواض التي تبخر تاركة وراءها رواسب ملحية تزيد من ملوحة مياه الشطوط. وتحفي أغلب أسرة الأودية تماما ولا تبقى بها قطرة ماء في فصل الصيف. ومن بين الأودية الحوضية تلك التي تنصرف إلى شط الحضنة، قادمة من جبال تيطري وأولاد نائل والحضنة. وتذكر منها وادي بوسعادة وحام ومسيلة أو القصب وبومدبو وبريكة. وكل هذه الأودية تصب في شط الحضنة الذي يقع على ارتفاع (200) م فوق مستوى سطح البحر. ويغطي مساحة تزيد على (27) ألف هكتار. وشط الحضنة أكثر ماء من بقية شطوط النجود، لأن الأودية التي تمر به المياه كثيرة وطويلة نسباً، ومنها ما تجري بها المياه طوال السنة. أما بقية الشطوط
البداية - اتقان استخدام السلاح
فأوبيتها قصيرة جدا. وهي جافة في أغلب أيام السنة. وهذا كان الشط الشرقي والغربي يمثلان حلقات منفصلة من السبخ ييف أغلبها في فصل الصيف، وتظهر بقاعها الحمأة والرواسب الملحة الطينية إذا اشتدت عملية التبخر.

* * *

ب - الأودية الصحراوية: وهي التي تجري إلى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراوي، تصب في بعض الأحيان في الشطوط، وتحتفى أحياها وسط الرمال، وتتميز بالأتي:

أولاً: ليس لها جوانب مضبطة ولا حدود معينة.

ثانياً: عدوى النظام وفجائية الفيضان، خلاف ما يحدث كل سنة في أودية المنطقة التلية وال شمالية بصفة عامة. إذ أن الفيضان لا يحدث إلا مرة واحدة في كل عدة سنوات في الأودية الصحراوية.

ثالثاً: أنها من نوع الأودية المهاجرة، وهذا يمكن أن يطلق عليها تجاوزاً اسم الأودية.

رابعاً: أنها رحمة إيقية لما تخزنه من مياه فيها تحت التربة، ونقطة طبيعية لما تسببه من أضرار إذا فاضت، حيث إنها تأتي على المنازل والخيام. وفي بعض الأحيان على القطعان والمزروعات.

وتنقسم الأودية الصحراوية حسب مناطق مابها إلى أودية السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي، «أودية الهوقار». فأما الأولى، فتتحد من السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي،

76
وتنجب من الشمال إلى الجنوب، ما يعادل وادي جدي الذي يسير على طول أودية السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي. ومياه أودية السفوح الجنوبية لجبال الأطلس الصحراوي، تغوص في الرمال الصحراوية، لتتجمع مرة أخرى في شكل عيون طبيعية، أو أبار ارتوازية عليها قامت واحات النخيل في إقليم بني مزاب والهواشم الشمالية الصحراوية. ومن أهم هذه الأودية " وادي جدي " الذي يأخذ متابعا بالقرب من مدينة " أفلو " بجبال عمر. وهذه الجبال تعتبر منطقة تقسيم المياه بين " وادي جدي " إلى الجنوب، والوادي الطويل إلى الشمال، ويجري " وادي جدي " في منطقة إنكسارية نتيجة للحركة الالتوائية التي أصابت سلسلة الأطلس الصحراوي، متجهاً من الجنوب الغربي نحو الشمال الشرقي ماراً بمدينة " الأغواط " و " أولادجلال " إلى أن يصل إلى " شط ملغيش " الواقع دون مستوى البحر (31 متراً). ويبقى وادي جدي في طوله وادي الشرف، كما يصرف جزءاً كبيراً من مياه السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس الصحراوي. وبذلك فهو أوفر الأودية الصحراوية ماء. ومن الأودية الصحراوية القادمة من الشمال إلى الجنوب نجد " وادي العرب " و " الوادي الأبيض " المنحدر من جبال الأوراس. ويصبان في منخفض " ملغيش " وهو شط واسع الأزهار، محيط به الكثبان الرملية، وتظهر على حوافه النباتات الصحراوية المتنوعة، وتغمره المياه في فصل الشتاء.

وينحدر من الجهات الجنوبية الغربية لجبال الأطلس الصحراوي وادي زرقون وسوقر والخبيز والناموس. وأهمها وادي الساورة الذي يرتفع وادي زوغنيانة من الجهات اليمنى، وأودية " غير " من الجهات السرية. ويسى " وادي الساورة " بطريق النخيل، حيث قامت
على حضارات قديمة، ما زالت تشهد بها تلك الآثار المتشرة هنا وهناك على طول الوادي، من كولومب بيشار حتى مصب سبخة المخرون إلى الجنوب من عين صالح في قلب الصحرا. ويعتبر وادي الساورة في الوقت الحالي شريان الحياة، تنتشر على امتدادها واحة النخيل والمدن التي تعتبر محطات للمسافرين. وسترد أهمية هذا الوادي بعد مد الخط الحديدي. وإتمام بناء سد «غير» لري منطقة عبادة. أما القسم الثاني من الأودية الصحراوية، فهي المنحدرة من جبال الهوقار وتظهر على شكل شبكة منحدرة في كل الاتجاهات، من أهمها: وادي تماراست، الذي ينبع من مدينة تماراست عاصمة الهوقار. ووادي نافاست، الذي يربط بين قلب الهوقار وجمهورية النيجير. ووادي جارات الذي يصرف مياه السفوح الشمالية الغربية لجبال افيس بحضرة الهوقار، ويلفظ ما يجمعه من مياه في سبخة المخرون. وتتميز أودية الهوقار بفياضاتها في فصل الصيف، لأن الأمطار تنزل في هذا الاقليم في فصل الصيف.

* * *

ج - النطاقات المناخية: لما كانت الجزائر تمتد على مساحة واسعة، فإن عناصر المناخ من رياح وأمطار وحرارة تظهر بها متباينة ومتلقة من الشمال إلى الجنوب، ومن مدينة الجزائر بالساحل حتى مدينة تامركرست - بالهوقار. ويمكن تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أقاليم متباينة، ممتدة على شكل نطاقات من الغرب إلى الشرق، ومتربة من الشمال إلى الجنوب كالآتي: مناخ البحر الأبيض المتوسط، ومناخ الاستويا، ومناخ الصحرا.
1 - مناخ البحر الأبيض المتوسط: يسود في المنطقة الشمالية، وفوق سلسلة الأطلس التي من تلمسان حتى مدينة سوق أهراس، بل يتوغل في الأراضي التونسية حتى مدينة تونس، وفي الأراضي المغربية حتى مدينة طنجة. ويقوده جنوباً خط (لانزوفيتز 350 مم) وهو الخط الفاصل بين مناخ الاستيبس في الجنوب، ومناخ البحر الأبيض في الشمال. ويتميز هذا الأخير بفصلين متناينين، أحدهما مطر دافئ طويل، وهو فصل الشتاء، والثاني فصل جار حار قصير وهو فصل الصيف. ويكاد الجو يكون صافيًا طوال السنة مع اعتدال في الطقس مما جعل من هذه المنطقة مشكاة سحرية وروضة غناء، ذات غابات مخضردة، وأشجار صنواع وغير صنواع من بلوط وصنوبر وعران وأرز وربيعان. وقد ساعدت هذه البيئة الطبيعية الجميلة منذ القدم على ظهور حضارات عريقة كانت متماوجة على طول ساحل البحر الأبيض المتوسط (الحضارة الفينيقية) حيث صفاء الجو ونور الشمس وسكون الطبيعة، كل ذلك مما ساعد الإنسان على التفكير والابداع وإنتاج حضارة رائعة لا زالت ترسل بضلالها حتى اليوم.

2 - مناخ الاستيبس: تتراوح أمطاره بين (350 مم و 200 مم) ويتمتد إلى الجهات الجنوبية من المناخ السابق، ويشمل أراضي النجود والأطلس الصحراوي. ويلاحظ هنا المناخ القاري بوضوح من مواقع حرارية يومية وشهرية ممطرة، وأمطار قليلة، وترابية نسبة منخفضة. ويعتبر المناخ الاستيبسي مناخاً انتقالياً بين مناخ الصحراء في الجنوب، ومناخ البحر الأبيض المتوسط في الشمال، وتسود به الحشائش القصيرة والفقيرة، تتخللها في بعض الأحيان الشجيرات المتجمدة بعضها عن بعض. وأهم هذه الحشائش: الشيخ ونباتات الحلفاء التي تعتبر مصدرًا من مصادر الثروة الجزائرية، إذ منها يصنع
أجود أنواع الورق، كما تدخل في صناعة بعض الأقمشة والصناعات المحلية.

- مناخ الصحراء: يمتلك أكبر مساحة في القطر الجزائري، إذ يندم من جبال الأطلس الصحراوي شمالاً حتى هضاب الهوقار جنوباً. وبذلك يشمل مساحة تزيد على التسعين بالمائة من المساحة الإجمالية للبلاد. وخط الارتفاع (200 م)، هو الحد الفاصل بين المناخ الصحراوي ومناخ الاستبس. فأمطار الصحراء تقل في أكثر مناطقها عن 200 م، وتتنزل في فصل الصيف على هضاب الهوقار والهوامش الجنوبية، وفي فصل الشتاء على الهوامش الشمالية. والرطوبة النسبية منخفضة جداً، والفوارق الحرارية مرتفعة جداً. وكذلك الحرارة اليومية التي تصل إلى (56) درجة مئوية في بعض الأحيان، وهو أعلى رقم في العالم سجله مرصد تندوف. ونتيجة لهذه الظروف الطبيعية القاسية، كانت الصحراء بلاد الغلاء والبيضاء والمليع، تكاد تختفي فيها الحياة النباتية تماماً، وبابجايا، مناخها متطرف للغاية.

- الغطاء النباتي: تغطي الغابات والحراص مساحة كبيرة بالجزائر. تقرب من السبعة ملايين هكتار، أغلبها في الأقاليم الشمالية. يوجد بالجزائر حوالي ثلاثة آلاف نوع من النباتات، أغلبها أصلية، والقليل منها مستورد من الخارج، مثل أشجار الكافور المستورة من أستراليا، والهندي أو التين الشوكي المستورة من المكسيك. وتتضم السنين النباتية إلى فصولين: أندلاع فصل الصيف أو (فصل الجفاف) تسوط الأشجار فيه أوراها، وتختفي فيه النباتات الصغيرة. وهذا يعتبر فصل النوم أو الراحة، يتوقف فيه النشاط النباتي. أما الفصل الثاني، فهو فصل الشتاء، تسوط فيه الأمطار، وفيه تورق الأشجار، وتختصر
الخشائش، وتزهر الأغصان، وتخرج البراعيم، وهذا يسمى فصل النمو أو فصل الإنبات. وتغضغض الغطاء النباتي لشروط طبيعية معينة تتحكَّم في وجوده وكثافته ونوعيته، ومن أهم هذه الشروط: المطر، والحرارة، والبرد، والجفاف، والرياح، والموقع، والتضاريس، فلهذا نظهر النباتات في الجزائر وهي مختلفة من مكان لآخر تبعًا لاختلاف الظروف المناخية السابقة الذكر.

ففي الإقليم الشمالي تظهر الحرائق من ضرو، وريحان، وحمايرة، وعلانق، ودوم، عند حضيض الجبال. وفي المناطق القليلة الأمطار والارتفاع، تظهر غابات الفلين على السفوح التي يقل ارتفاعها عن (1200 م) والتي تظهر بها التربة الرملية بالخصوص. أما إذا اشتد الارتفاع، وزادت البرودة، وتوضعت التربة، فظهرت غابات الصنوبر والأرز والعرعار، والسفوح المقابلة للرياح الممطرة أوفر نباتاً وأشجاراً من السفوح الواقعة في ظل الرياح الممطرة. وفي إقليم الاستيبس، أو النجود، الذي تقل أمطاره عن (350 م) سنويًا، نجد الحياة النباتية فقيرة، وتختفي الغابات الكثيفة لتحل محلها الحراج والمراعي الواقعة. أما في الجنوب، حيث تكاد تتغذى الأمطار، فكَّد يختفي الغطاء النباتي تماماً. وكثيراً ما يقطع المسافر مئات الكيلومترات دون أن يقع بصره على نبتة عشب أو قطرة ماء.

تظهر بعد ذلك العلاقة الوثيقة بين المطر والنباتات عند الأخذ بخطط بياني مقارن لأطول النباتات الطبيعية، ومعدلات سقوط الأمطار، حيث يظهر أن ارتفاع النباتات (طولها) يصل إلى عشرين مترًا أو أكثر في الإقليم الذي تزيد أمطاره السنوية على (350 م). بينما لا يزيد ارتفاع هذه النباتات (طولها) على بضع أمتار في الإقليم.
الذي تتراوح أمطاره بين (300 مم) و (500 مم) سنوياً. أما الاقليم الذي تتراوح أمطاره بين (200 مم) و (500 مم) سنوياً، فلا تظهر فيه إلا النباتات الشوكية القصيرة جداً. وعلى هذا الأساس، يمكن تقسيم الجزائر إلى ثلاثة أقاليم نباتية متمندة من الغرب، إلى الشرق، على شكل نطاقات، ومرتبة من الشمال الى الجنوب، وهي:

1- إقليم البحر الأبيض المتوسط، إقليم الاستبس، إقليم الصحراء.

- إقليم البحر الأبيض المتوسط: وتحديد جنوباً السفوح الجنوبية لسلسلة الأطلس التلي، وشماليًا البحر الأبيض المتوسط، ويتراوح هذا الاقليم بفصل حار وجاف وقصير نسبيًا، يمتد من شهر حزيران -يونيو حتى شهر نيسان بارد. وفصل بارد دافئ طويل يبدأ من شهر نيسان حتى شهر أكتوبر وتأتي بهـْ جودة، وهو أوفر المناطق نباتاً، وأغناها نوعاً، وأهم غاباته هي:

- غابات أشجار (الفلين) (1) التي تتراوح ارتفاعها (طولاً) بين السنة والآثين عشر مترًا. وتظهر أشجار الفلين فوق التربة الرملية، كما لا تتحمل البرودة المتطرفة، ولا تقتصر على المناطق التي لا يزيد ارتفاعها على (1200 م). وهي تظهر على جبال الظهرة وزكار والسفوح الشمالية لجبال تلمسان، والoneris والأطلس المتيجي وبالقرب من بجاية. وأهم غابات الفلين بالجزائر هي المتمندة من جيجهل غربًا حتى القالة شرقاً على طول الساحل. وتمتاز أشجار الفلين بعروقها الطويلة التي تخوض عمودية في الأرض، وأغصانها المشعبة

(1) أشجار الفلين: (CHÊNES-LIÈGES)
لا تظهر شجرة الفلين بعد أن تبلغ من العمر الستين سنة، وتعمي القرون العديدة حتى ينهار وسط جذعها، وتظل القشرة الخارجية محافظة على حياة الشجرة، إلى أن تهب ريح قوية تأتي عليها، إن لم تسقطها يد الإنسان. وتقل مساحات غابات الفلين في الجزائر حالياً عن (440) ألف هكتار، ذلك أن الاستعمار الفرنسي عمل خلال حرب التحرير على إحراق مساحات واسعة من الغابات الساحلية. وكانت الجزائر قبل هذه الحرب، ثاني دولة عالمية في مساحة غابات الفلين، لا تفوقها إلا البرتغال.

* غابات أشجار الصنوبر: وتتميز بأوراقها الابراوية وثمارها المخروطية الشكل. وهي تغطي مساحة واسعة من شمال الجزائر تزيد على (700) ألف هكتار. وتظهر في جبال النتل والأطلس الصحراوي، وهي على أنواع، منها غابات الصنوبر البحري التي تتطلب أمطاراً كثيرة ومرتفعات متوسطة. وهذا يظهر الصنوبر البحري على الساحل الشرقي، وبالخصوص في منطقة جيجل، ورأس بوقراقون. وهي تغطي مساحة لا يتأس بها. ومن غابات أشجار الصنوبر هناك نوع الصنوبر الحلي، فوق المرتفعات التي تزيد على (1300) م فوق جبال الساحل وجبال الأطلس الصحراوي، ويغطي مساحة واسعة من الجبال التي يصل ارتفاعها حتى (2000) م. ويتحمل الصنوبر الحلي الظروف المناخية القاسية، من أمطار يقل متوسطها السنوي عن (300) مم سنوياً، وتربة جيرية أو رملية أو خجيلة، وهذا فإننا نجد في غرب الجزائر أكثر منه في شرقها، لأن غرب الجزائر أقل مطرًا من شرقها. وتتميز أشجار
الصنوبر الخلبي، بأوراقها الابراهية الطويلة التي تخرج في فصل الشتاء، ولا تسقط إلا بعد أربع سنوات، وثمارها بطيئة النضج، وجذوعها مستقيمة، وإذا شفت خرج منها سائل كثيف يبجع بعد مدة هو الصمغ، الذي يدخل في صناعة الصباغة، وأخذاب الصنوبر معروفة بيجودتها واستخداماتها الكثيرة.

١ - غابات أشجار (البلوط) (١) وبدأ ظهورها على ارتفاع (٤٠٠ م) وتمتد حتى ارتفاع (١٧٠٠ م) فوق الأطلس التلي. أما في جبال الأوراس فتظهر على ارتفاع (١٩٠٠ م). وتتطلب أشجار البلوط أمطاراً كثيرة، وتربة رطبة، وهي تظهر على جبال تلمسان والونشريس وديرة وبابور ونوميديا. وتغطي مساحة تقرب من (٥٠٠) ألف هكتار.

٢ - غابات أشجار (الأرز) (٢) أو غابات الجبال الشاهقة، لأن أشجار الأرز لا توجد إلا في المناطق التي يتراوح ارتفاعها بين (١٣٠٠ م) و (٢٠٠٠ م) كجبال الونشريس وثنية الأحد والبليدة وجرجرة والأوراس وبوطاب. وتغطي مساحة تزيد على (٣٠) ألف هكتار. وأشجار الأرز أضخم وأطول أشجار الغابات الجزائرية، تعمر السنين الطوال، وتنطلب أمطاراً وليمة، وشتها بارداً، وصيفاً معتدلاً. وهذه الظروف المناخية جعلت أشجار الأرز تهجر الجبال الغربية بوهران وجبال الأطلس الصحراوي.

٣ - غابات أشجار الزيتون: وتحل السفوح القليلة الارتفاع، بين الألف والمتاولة متر، فوق التربة الرملية، التي تلائم بالخصوص (CHÊNES VERTS) (١)
(البلوط)
(CÈDRES) (٢) (الأرز)
أشجار الزيتون المختلطة بشجيرات الضرو، والعلاقات، والحميرة، والبودداد، وسيسون، والريحان، والدروم. وبهذا الاختلاط تكون غابات أشجار الزيتون غطاء نباتياً متشابكاً يصعب اكتشافه. لكن رائحة أشجاره المتنوعة تنبعث الألباب، وتذكي القرائح، وتبعث بالراحة والسرور في الأنسف، في كل فصل من فصول السنة، والخصوص في فصل الرياح الذي تزهر فيه الأشجار والشجيرات، وتتوالد فيه الطيور، وتكثر فيه الينابيع المتدفقة. وتمتاز أشجار الزيتون بأوراقها القصيرة السميكية، وتكون في اتجاه مائل بالنسبة للشمس، وهي صلبة ذات لون أخضر فاتح بالجهة العلوية، وفضية بالجهة السفلية المقابلة لسطح الأرض، ومغطاة بطبقية شمعية تقيها شدة الرياح في فصل الصيف. ولعل أهم ما يميز مناخ البحر الأبيض المتوسط هو أشجار الزيتون التي تظهر حيث يظهر هذا المناخ، وهذا يمكن اعتبارها الحد الفاصل لإقليم نباتات البحر الأبيض المتوسط.

د.2- إقليم الاستسبي: ويتم الالتنقل من إقليم البحر الأبيض المتوسط، وهو إقليم انتقال بين الصحراوية في الجنوب، والتل في الشمال. وبحكم موقعه، فإن آثار الانتقال ظاهرة بوضوح على تحوه الشمالي والجنوبي، إذ تظهر أشجار الزيتون عند ت نحوه الشمالي، وشجيرات البدن عند ت نحوه الجنوبي.

تقل الأمطار نسبياً في إقليم الاستسبي ويزداد الجفاف، وتأخذ الفوارق اليومية والفصلية في الارتفاع، كما تتزايد النذوبات المطرية وضهرًا، وبذلك يأخذ المناخ القاري في الظهور، وقد أثر هذا المناخ المتطرف في الحياة النباتية. فبدل الغابات المطيرة، تظهر بأرض التجود الشجيرات المتبدعة بعضها عن بعض، وتظهر الحشائش القصيرة التي...
تبث في فصل دون آخر، ولا يرجع فقر المنطقة باتانا إلى قلة الأمطار فقط، ولكن إلى فقر التربة أيضاً، حيث تكثر السبخ في هذا الإقليم، وتسود به التربة الملحية التي لا تساعد على الحياة النباتية، والحشجر بالخصوص. وأهم نباتات إقليم النجود: الحلفاء، والسدرة، والبطوم والشجع، والدرين، والكرار، والطرفة، أو الثل. أما الحلفاء فهي أشهر نباتات النجود، يبلغ ارتفاعها (طولها) حوالي ال protagonist، ولا تحمل الرطوبة الكبيرة، وتقع بها يقرب من (3000 مم) من الأمطار سنوياً، وإذا زادت الأمطار على (5000 مم)، أضرت بالحلفاء التي تختفى لحبل معلما (الديس) الذي يزيد طوله على المتر، له أوراق أبرية الشكل، حرشاء، تخدش لمسها، ويظهر فوق جبال النجود والتل على السواء. ومن نباتات النجود الدرين، الذي يظهر فوق التربة الرملية. والشيخ، فوق السهول الفيضية. والسنار، فوق التربة الطينية. وأنواع أخرى من النباتات تظهر فوق التربة الملحية الشطية، وتظهر على حافات المنخفضات من السبخ، والكثير منها تعاونه حتى المواسي نظرة لمشدة حمضتها وملوحتها ومرارتها. أما على ظهر سلسلة الأطلس الصحراري، حيث يزداد المتوسط السنوي للأمطار عن (3000 مم) فإننا نجد غابات الصنوبر الحليمي، مع غابات فقيرة فوق جبال الجلفة والعين الصفراء.

5- 3- الإقليم الصحراري: ويمتد إلى الجنوب من سلسلة الأطلس الصحراري، بجهد شمالي إقليم الاستبس، أما جنوباً فيتجاوز حدود الصحراء الجزائرية. وهو فقير بالحياة النباتية بحكم موقعه بعيداً عن الأمطار وأسبابها - إذ لا تزيد أمطاره السنوية على (200 مم) - ويظهر في الصحراء إقليمان متباينان نباتيًا، أحدهما هو
إقليم "تنزورف" أو "المتبع" الخالي من النباتات تماماً حيث لا يظهر له فا في أي أثر. والثاني إقليم "الفقر النباتي" الذي تظهر في أوديته شجرات "الثل و البطوم و الطلح و السط و الصمغ و السدرة" التي تكتفي بالرطوبة القليلة المخزونة بين جزئيات التربة. أما فوق الهضاب الصخرية، فتظهر نباتات قصيرة جداً، مثل الضمران، والعجرم، والعيندة، والقرنفل. كما تظهر فوق الكهبان الرملية نباتات الدرن، وهو الكلا المفضل لدى الجمال.

وتتميز النباتات الصحراوية بالأي:

- أنها سريعة الظهور والاختفاء، نتيجة للأمطار التي تصلها من بعيد، وهي أمطار مباغته غير منتظمة، تدوم وقتاً قصيراً، فتؤثر بذلك في النباتات التي تظل بذورها خفيفة تحت التربة عدة سنوات حتى أن تنزل عليها أقل كمية من الأمطار، فتنمو بشكل غريب، وتدوم حياتها أيامًا معدودة، ثم تنام عدة سنوات قبل أن تظهر مرة أخرى، إذا ما نزلت الأمطار، وعادت نوبة الرطوبة.

- أن أعطانها غالباً ما تكون مجرد من الأوراق، وجذوعها قصيرة ودقيقة، وكثيراً ما كانت مسلحة بالأشواك لندرأ عن نفسها هجمات الحيوانات، وتقلل من عملية التبخر في هذا الإقليم الذي تشتد فيه الحرارة وعملية التبخر، وبقي فيه الأثر الفعلي للأمطار.

- أن عروقها كثيرة ومتشعبة، حيث أنها ممتدة في اتجاهات مختلفة إلى أعماق بعيدة حتى تصل إلى المياه. وأيضاً المناطق الصحراوية نباتاً هي بطن الأودية، لأن طبقة اختزان المياه بها غير بعيدة عن سطح الأرض، وبذلك يسهل على النباتات المعتمدة على المياه الباطنية أن ترسل شبكة عروقها إلى امتصاص حاجتها من الماء بسهولة.
لفضائل الثورة

1 - في فلسفة الثورة.
2 - البيان الأول للثورة.
3 - مكتب جبهة التحرير في القاهرة يصدر بيانه عن الثورة.
4 - بدايات العمل الثوري.
5 - انطلاقة الثورة في كتابة قائد إفريقي.
6 - عقبات على طريق الثورة.
7 - الثورة في وثائق ثوارها.

أ - الإعداد للثورة.
ب - الله أكبر - خالد - عقبة.
ج - هيب الثورة في أريس.
د - نجر يوم الثورة المسلحة.
ه - إشادة الثورة في موجة (منجية).
و - الولاية الأولى في معركة التحرير.
ز - الثورة في ولاية وهران.

89
Mike P. M. أقول "جول مونير" في وصفه الكلاسيكي لطبيعة الثورة وتطورها ما يلي: تفقد جميع مظاهر النشاط الاجتماعي وفئاتها بصورة تدريجية استقلالها في الثورات. ففي الحروب الخارجية والداخلية على حد سواء، ينعدم الاستقلال في السياسات الخارجية والداخلية، وفي العوامل الاقتصادية والدينية، وتصبح كلها مترابطة متشابكة. ويجه كل شيء تدريجيا نحو التوافق والانسجام، وهذا يشمل الأمور المتعلقة بالأفراد والجماعات على حد سواء، ويسبب هم ولها الكثير من الجهد والمشقة... وأخيرا فإن العالم بأسره يغدو منطقة حساسة واسعة من الاحتكاك، والاحتلال المتبادل. ويغدو التفاعل بين العالم الكبير والجافر وبين الفرد والمجتمع، وبين الكيان الصغير والكيان الكبير الضخم، حركة سريعة متلاحقة، تجرب معها الإنسان دون أن يفهم شيئا، ولا يرون هناك مجال لتحليل القيم والأهداف - الذي يمكن كل مجموعة بشرية وكل فرد، من أن يجد أو تجد "المكان المتفائل لكل شيء"، و "تصطاد القيم المنفصلة والمجازرة" متناقصة على الفرد وفي داحله. وفي وسع المؤرخ أن يجزيه.
الأزمة العامة إلى سلسلة من الأزمات الخاصة في أوقات وأماكن معينة، ولكن هذه الأزمات تظل تعديل بعضاً البعض، وتقرر مصير بعضها البعض، وهذا الترابط، يكون مكانياً وزمنياً. فالنفس القديمة تتدفع إلى التغير، ولفوات؛ فهو يظهر بعد أي شيء لبلاً الفراغ الذي خلفته الأمور التي قدشتها نفس وطرحتها جانباً. وتسى الحاجات بتشكيل صورها، وتكشف بما تستطيع تحقيقه من أين؟ وكيف؟ وتتوقف العقائد التي قام عليها المجتمع، عن السيطرة على الاستجابات العضوية، ولكنها تتعرض للهجمات على أساس المصالح. وتدافع عن نفسها، على هذا الأساس أيضاً، وتتهم الحوافز الاجتماعية العظيمة في النفس، التي تمثل هذه العقائد عن طريق النقد...

في مثل هذه الفترات، وعندما تصبح القواعد القديمة للمجتمع واهية ومائرة ومنهارة أمام حالة من الانتقال، وتتفقد الانتقادات الموجودة إلى كل الأوضاع القديمة، التي لم تعد مرشحة، إلى كل ما تقوم عليه من أنس، دون كابح أو زاجر. . . وكتيمة طبيعية لانتشار الشكك، تتبعث هناك «بانتهاء» غير ناضجة. . . هي: "وليدة التحالف بين الشكاة والحين إلى الوطن، إلى جانب العدمية (النجلية) - وهي حالة من توافر الصلابة النفسية التي تعني أن يكون الإنسان حاضراً للفائدة لكل عمل. يظهر نوع من الحنين في أشكال متعددة، للإباع العام الاجتماعي، وفي هذا التوقيت الوحدة، تعيش النفس، على أضخم صورة مقلدة لها، وهي صورة العصر الذهبي، واليوم المجيد. . . ولا ريب في أن المفاهيم الجديدة للعالم، التي تحاول أن تحول مكان النظام الاجتماعي القديم، تحمل طابع الجدة.

٩٢
والثورة - وهي الأزمة الطويلة التي تحل التنافر إلى وحدة - لا تستطيع الوقوع في "وعاء مغلق" في جزء واحد من العالم، حتى ولا في قارة بأسرها، فارتباط الاضطرابات ارتباط عالمي . . . والثورة - عملية تاريخية، لا تقود إلى أبواب الفردوس، بل إلى أبواب عالم شبه العالم الذي نعرفه، باستثناء أن كل ما فيه قد تبدل. حتى "النفس" أيضاً تغيرت. فأية فئات يمكن لها أن تقسم المنافع والخدمات وتوزعها، وهم تتألف هذه الفئات؟ ولمنفعة من سيجري هذا التوزيع؟ وأية علاقات بشرية يمكن لها أن تبدل فعلًا وما هي الأهمية الحضارية لهذا التبدل وما هو نوع النظام الجديد الذي سيوجد والذي سيقبل فيه الناس أوضاعهم؟ وكيف يمكن لهذا النظام أن يضع الخطة لإبراز الطبقة المختارة؟ هذه هي الأسئلة التي تبرز ما يتعرض للمخطر في المعركة.

وليس من الصعب تسمية كل عصر "بالعصر الثوري" إذا كان الاصطدام المتزايد في المشاكل يقترب من نقطة الإشباع. فالتبان والحلف يصلان إلى أقصى امتدادهما . . . وترفض الغالبية العظمى تقبل المجتمع. وياخذ عدد الرجال الذين فقدوا الأحساس بالانتهاء إلى النظام الاجتماعي أو النظام العالمي يزداد . . . ويصبح المجتمع إلى حد كبير، واخيراً إلى حد نهائي، ترتيباً استبداًياً، أو إذا شئنا تعبيراً أاصداً، فلنا إنه يصبح سلسلة من الترتيبات التي لم تعد تستحق اسم "المجتمع" . . . وياخذ الظروف دورها في تكيف سلوك الإنسان أو تشوهه، ويعطس دور هذه الظروف، بينما ينقص دور المسؤولية. وفي مثل هذه الأوقات يكون الرجل العظيم هو ذلك الذي يملك، بالإضافة إلى مواهبه الأخرى، موهبة تمييز "اللحظة".
المؤاتية . . . والرجال العظام في مثل هذه الظروف بالإضافة إلى فضائلهم الأخرى فضيلة المعرفة التامة وموهبة المخ في عباب المجتمع . . . وعندما لا يشعر الفرد بأنه جزء مكمل لنظام اجتماعي، يحاول البحث عن حلول مؤقتة، كالحصول على ملجأ في فتنة، أو في أي مكان آمن آخر . . . ولكن هذا الوضع، يسري على روح المغامرة بقدر ما يسري على روح الحذر. وهناك فرص جديدة، وعن طريق التصميم والشجاعة والاحتمال والحذر، يمكن الوصول في هذا العصر إلى نتائج أكثر من تلك التي كان بالمستطاع الوصول إليها في العصر السابق.[1]

• • •

المهم في الأمر، هو أن إرادة التغيير الشامل باتت متوافرة لدى عظم مسلمي الجزائر، وتوافرت قيادة تاريخية عرفت أهمية اللحظة التاريخية. وأفاق العالم صبيحة اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر 1954، على نداء يحمل الإهلان عن بداية الثورة. وليس في وسع أي ثوري - أو أي فئة ثورية، أن تحكم مسبقاً على مدى ما يحققه النداء الأول من استجابة في نفوس الجماهير. غير أن اللجنة الثورية للوحدة والعمل، والتي ثارت في تلك الليلة إلى "جبهة التحرير الوطني الجزائري" كانت على نبضة مطلقة من أن النداء الذي وزعته مع الطلقات الأولى التي أهملت قيام الثورة، سيقوي استجابة عامة تساعد الثورة على تطوير أعمالها وتصعيد صراعها. وهذا ما تحقق فعلاً. وقد تضمن البيان التاريخي ما يلي:

(1) علم الاجتماع في الشيعة (굴ان مونرو) ص 302 - 308 عن الجزائر الثانية - جوان غيلسي - ترجمة حفيدي حداد - ص 117 - 119.
2 - البيان الأول للثورة :

( بيان فتح نوفمبر 1954 )

أيها الشعب الجزائري
أيها المناضلون من أجل القضية الوطنية

أنتم الذين ستصدر عظامكم بشأني، يعني الشعب بصورة عامة، والمناضلين بصفة خاصة، نعلمكم أن غرضنا من نشر هذا
الإعلان هو أن نوضح لكم الأسباب العميقة التي دفعتنا إلى العمل.
أن نوضح لكم مشروعنا والهدف من عملنا ومقومات وجهة نظرنا
الأساسية التي دفعتنا إلى الاستقلال الوطني في إطار الشمال الإفريقي.
ورغبتنا أيضاً هو أن نحنكم الالتباس الذي يمكن أن توقعكم فيه
الأسسية وعملاً الإدارة، وبعض محتوي في السياسة الإفريقي.
فنحن نعتبر قبل كل شيء أن الحركة الوطنية، بعد مراحل من
الكفاية، قد أدرك المرحلة النهائية. فإننا كان هدف أي
حركة ثورية، في الواقع هو خلق جميع الظروف الثورية للفتت
تمرين، فإذا للثورة في أرضنا، في أرضنا落ち着ية، بعد
حول قضية الاستقلال وعمل. أما الأوضاع الخارجية، فإن الانفراج
الدولي مناسب لتسليح بعض المشاكل الثانيتي التي من بينها قضيتنا التي

المراجع: ملفات وثائقية 24 - نشر وزارة الإعلام والثقافة - الجزائر - أكتوبر 1976

ص 74 و 8.
تجد سندها الدبلوماسي، وخاصة من طرف، إخواننا العرب والمسلمين.

إن أحداث المغرب وتونس لها دلالتها في هذا الصدد، فهي تمثل بعمق مراحل الكفاح التحرري في شمال أفريقيا. وما يلاحظ في هذا الميدان، أننا منذ مدة طويلة، أول الداعين إلى الوحدة في العمل. إن هذه الوحدة التي لم يتح لها مع الأسف التحقق أبداً بين الأقطار الثلاثة. وقد اندفع كل واحد منها اليوم في هذا السبيل، أما نحن الذين بقينا في مؤخرة الركاب، فاننا تتعرض إلى مصير من تجاوزاته الأحداث. وهكذا فإن حركتنا الوطنية قد وجدت نفسها محتمة، نتيجة لسنوات طويلة من الجموح والروحين، توجيهها سيء، ومحرومة من سندر الأرائي العامي الضروري، وقد تجاوزتها الأحداث، الأمر الذي جعل الاستعمار ينير فرحًا ظناً منه أنه قد أحروز أخضر أضرخم انتصاراته في صراعه ضد الطليعة الجزائرية.

إن المرحلة خطيرة

أمام هذه الوضعية التي يخشى أن يصبح من المجال علاجها، رأت مجموعة من الشبان المسؤولين المناضلين الرايعين، التي جمعت حولها أغلب العناصر التي لا تزال سليمة ومصممة، أن الوقت قد حان لإخراج الحركة الوطنية من الأزق الذي أوقعها فيه صراع الأشخاص، والتأثيرات، لدفعتها إلى المعركة الثورية الحقيقية، إلى جانب إخواننا المغاربة والتونسيين. بهذا الصدد، فإننا نوضح بأننا مستقلون عنطرفين اللذان يتنازلان السلطة. إن حركتنا قد وضعت المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات التافهة والمغلوطة لقضية
الأشخاص والسمعة، ولذلك فهي موجهة فقط ضد الاستعمار الذي هو العدو الوحيد الأعمى، الذي رفض أمام وسائل الكفاح السلمي،
أن يمنح أدنى حرية.

ومن أن هذه أسباب كافية لجعل حركتنا التجديدية تظهر تحت اسم "جهة التحرير الوطني" وهكذا ننخلص من جميع المنازلات المحتملة، وتبيع الفرصة جميع المواطنين الجزائريين من جميع الطبقات الاجتماعية، وجميع الأحزاب والحركات الجزائرية الوطنية الفرصة أن تنضم إلى الكفاح التحريري دون أي اعتبار آخر. ولكي نبين بوضوح هدفنا فإنا ننظر فيها يلي الخطوط العريضة لبرنامجا السياسي:

الهدف: هو الاستقلال الوطني بواسطة:

1 - إقامة الدولة الجزائرية الديمقراطية الاجتماعية، ذات السيادة، ضمن إطار المبادئ الإسلامية.

2 - احترام جميع الحريات الأساسية بدون تمييز عرقي أو ديني.

الأهداف الداخلية:

1 - التظاهر السياسي - بإعادة الحركة الوطنية إلى نهجها الحقيقي، والقضاء على جميع مخالفات الفساد، وروح الإصلاح التي كانت عاملًا هاماً في تخلفنا الحالي.

2 - تجميع وتنظيم جميع الطبقات السليمة لدى الشعب الجزائري، لتصفية النظام الاستعماري.
الأهداف الخارجية

1 - تدوير القضية الجزائرية.
2 - تحقيق وحدة شمال أفريقيا في داخل إطارها العربي والإسلامي.
3 - في إطار ميثاق الأمم المتحدة : نؤكد عطفنا الفعال تجاه جميع الأمم التي تساند قضيتنا التحريرية.

وسائل الكفاح

إنسجاماً مع المبادئ الشورية واعتباراً للأوضاع الداخلية والخارجية، فإننا سنواصل الكفاح بجميع الوسائل حتى تحقيق هدفنا. ولكي تحقق (جهة التحرير الوطني) هدفها، فإنه يجب عليها إيجاز مهمتي أساستيين في وقت واحد هما : العمل الداخلي، سواء في الميدان السياسي أو في ميدان العمل المحض، والعمل في الخارج لجعل القضية الجزائرية حقيقة واقعة في العالم كله، وذلك بمساندة كل حلفائها الطبيعيين ; وهذه مهمة شاقة تقليل العبء، وتتطلب كل القوة، وتعبئة كل الموارد الوطنية. وحقيقة أن الكفاح سيكون طويلاً ولكن النصر محققًا. وفي الأخير، ومحاشيًا لتأويلات الخاطئة، وللتثليل على رغبتنا الحقيقية في السلام، وتحديداً للخسائر البشرية وإزالة الدماء، فقد قدمنا للسلطات الفرنسية وثيقة مشتركة للمناقشة، إذا كانت هذه السلطات تحدرها النية الطيبة لتعترف نهائياً للشعوب التي تتعمرها بحقها في تقرير مصيرها بنفسها :
1 - الاعتراف بالجنسية الجزائرية بطريقة علنية ورسمية، ملغية بذلك كل الأقوال والقرارات والقوانين التي تحمل من الجزائر أرضًا إفونسية، التاريخ والجغرافيا واللغة والدين والعادات للشعب الجزائر.

2 - فتح باب المفاوضات مع الممثلين المفاوضين من طرف الشعب الجزائري على أسس الاعتراف بالسيادة الجزائرية وحدة لا تنجزأ.

3 - خلق جو من الثقة وذلك بإطلاق سراح جميع المعتقلين السياسيين، ورفع كل الاجراءات الخاصة، وإيقاف كل مطاردة ضد القوات المكافحة.

وفي المقابله

1 - فإن المصالح الفرنسية، ثقافية كانت أو اقتصادية، والتحصيل عليها بنزاهة، ستحترم، وكذلك الأمر بالنسبة للأشخاص والعائلات.

2 - جميع الفرنسين الذين يرغبون في البقاء بالجزائر، يكون لهم الاختيار بين جنسيتهم الأصلية، ويعترفون بذلك كأجانب أمام القوانين السارية، أو يختارون الجنسية الجزائرية، وفي هذه الحالة يعتبرون كجزائريين بما هم من حقوقهم، وما عليهم من واجبات.

3 - تحدد الروابط بين فرنسا والجزائر، وتكون موضوع اتفاق بين القوىتين الانتقائيتين على أساس المساواة والاحترام المتبادل.

أيها الجزائري! إننا ندعوك لتشارك هذه الوثيقة، وجوابك هو أن تتضمن إليها لإنقاذ بلادنا، والعمل على أن نسترجع لها حريتها. إن
جهة التحرير الوطني هي جبهتك، وانتصارها هو انتصارك أما نحن، العازمين على مواصلة الكفاح، الواثقين من مشاعرك المناهضة للإمبراليين، فإننا نقدم للفالون أغلى وأفنس ما تملك.

فاتح نوفمبر 1954.
الأمنة العامة.

***

مع ببيان جبهة التحرير الوطني أصدرت قيادة جيش التحرير الوطني التي ولدت ليلة الثورة من تنظيم اللجنة الثورية للوحدة والعمل بياناً تم توزيعه مع توزيع بيان جبهة التحرير الوطني ولم يكن توزيع البيانين في وقت واحد دليل ووجود انسجام قدر ما كان تأكيداً على ولاية التنظيم السياسي والعسكري للثورة، وانطلاق التنظيمين من العمل الصامت إلى المجابهة المسلحة. وتضمن بيان جيش التحرير الوطني ما يلي:

بيان من جيش التحرير الوطني في الفاتح من نوفمبر- تشرين الثاني 1954

أيها الشعب الجزائري!

فكر بالوقف الشائن للاستعمار، حيث العدالة والديمقراطية والمساواة ليست أكثر من واجهات خداعية، يستخدمها المستعمرون.

ومع كل هذه الشرور، يجب عدم نسيان قصور الأحزاب عن الدفاع لضمان مصلحتك. فهيا بنا لنمسك بدأ بيد، ومعنا إخوتنا في الشرق والمغرب، والذين يموتون لتعيش أوطانهم. إننا ندعوكم لاستعادة
شاب هجر مدرسته والتحق بقواعد الثوار
حريتك ولو كان دملنا ثمناً لها. نظم عملك إلى جانب قوات التحرير التي تطلب مساعدتك. وعليك واجب حمايتها وتقديم العون لها.

إذا عدم المبالاة والتخلي عن الصراع أصبح جريمة. أما الخيانة فهي في مقاومة الثورة. إن الله مع المجاهدين المدافعين عن قضيتهم العادلة، ليست هناك قوة يمكن لها إيقافهم منذ اليوم. فإما الموت بفخار، وإما تحرير الوطن.

عاش جيش التحرير. وعاشت الجزائر مستقلة.

* * *

عندما صدرت هذه البيانات، كان هلب الثورة قد انطلق منذ ساعات قليلة في "آريس" و"خششة" و"فم الطرب". وفي عدد كبير من المواقع ضمن إطار "العمليات الصغرى"، غير أن تنوع هذه العمليات ووفرة عددها كان أمراً مثيراً لقلق السلطات الاستعمارية. لقد كان إعلان الثورة مجرد تظاهرة للقوة، غير أنها تظاهرة صممت بطرقية رائعة. وانسجاماً مع برامج الثورة في ربط "الصراع السياسي" بالصراع المسلح، قام مكتب جبهة التحرير الوطني في القاهرة - والذي كان يرأسه أحمد بن بلّة - بإصدار بيان يعلن فيه إنطلاقة الثورة وذلك يوم 10 تشرين الثاني - نوفمبر 1954 (أي بعد مضي 16 يوماً على إنطلاقة الثورة) وتضمن البيان ما يلي:
3 - مكتب جبهة التحرير في القاهرة، يصدر بيانه عن الثورة

. . . لقد بوغت المستعمرون في ليلة الفاتح من نوفمبر-تشرين الثاني - الحالي، بجماعة من الهجمات، بين الساعة الواحدة والساعة الثانية صباحاً، شملت جميع أنحاء الجزائر. وهذه الحوادث التي تجلى تنظيمها. لجميع المراقبين، كانت تشمل بوجه خاص هجمات على مراكز الجيش، والشرطة (البوليس) ومستودعات الأسلحة، ونسف أهداف استراتيجية واقتصادية حيوية، ولم تستهدف الأشخاص في أي مكان. أما القتلى الذين ورد ذكرهم، فقد قتلوا في اصطدامات بين البوليس والوطنيين الجزائريين.

ولقد اتخذت حركة الوطنيين الجزائريين أشكالًا مختلف حسب المناطق. ففي شرق الجزائر، أي في منطقة جبال الأوراس، اعتصم الوطنيون بالجبال، بعد أن هاجموا المراكز العسكرية في باتنة، وخنشلة، وبعدم احتلوا مركز آريس. وهنالياً انسحبهم، نسفوا الجسور وسدوا المنافذ والطرق.

وهؤلاء الوطنيون الذين خصصوا بجبال الأوراس، هم الذين احتجشذ لمقاومتهم معظم القوات العسكرية الفرنسيّة في الجزائر،
تلك القوات التي جاءت نجدات هامة من فرنسا وألمانيا لتعزيزها. وهنا يجدر بنا أن نلاحظ أن استخدام القوات التي كانت تعسكر في ألمانيا لم يتم إلا بعد موافقة هيئة أركان حرب منظمة شمال حلف الأطلسي. وكانت الأنباء قد ذكرت، في أوائل شهر تشرين الثاني - نوفمبر - أن مباحثات سرية تجري بين الجنرال « غيلوم » الفرنسي، والجنرال « غرونتر » قائد قوات حلف الأطلسي. وبعد المباحثات أيام، سحبس فرنسا فرقتين كاملتين بجهزتين بعدد الحلف العسكري. - وتقدر الفرق الأفريقية التي حشدت في جبال الأوراس والتي تعززها المدرعات والطائرات بفيلين - وبلغ عدد المقاومين الجزائريين في تلك المنطقة عدة آلاف، مسلحون بالبنادق والرشاشات، وقد التحق بهم حوالي مائتي رجل، من جيش التحرير التونسي، بعد اجتياز الحدود.

ويستطرد البيان قائلاً: ويقوم الوطنيون في بقية أنحاء إقليم قسنطينة بعمليات يومية، تهدف إلى إرهاب القوات الأفريقية، وذلك بمحاولة المراكز العسكرية والمنازل ونسف الجسور وقطع الخطوط الهاتفية والسكك الحديدية، وقطع هذه الحوادث قرب قالة، وسوق أهراس، وسكيكدة. وفي جنوب المنطقة، تسللت بعض القبائل، وتوجهت إلى الشمال لدعم الوطنيين في جبال الأوراس. وفي إقليم الجزائر، حيث وقعت هجمات في مدينة الجزائر، وفي أهم المدن. وقد تركت النشاط في الجهات الجبلية من منطقة القبائل أسرها، وضواحي مدينة « بليلة » . ويقوم الوطنيون المعتصمون بالجبال، بهجمات عديدة على القوات الأفريقية، وأصبح الوطنيون وهم يسيطرون على منطقة القبائل كلها، بحيث لم يعد
لا تستطيع الإفريقيين المرور إلا في قوافل السيارات المصفحة وأما في غرب الجزائر - أي في إقليم وهران - ونظراً لأن المنطقة لا تسمح إلا باستعمال أساليب المطاردة والإرهاب، فقد وقعت حوادث نسف وتخريب في كل الأنهار. وحدثت إلى جانب ذلك اشتباكات عديدة استخدمت فيها الرشاشات في "مستغانم" بينها قطعت الخطوط الهاتفية المدفونة تحت الأرض والتي تصل بين الجزائر والمغرب - مراكش - وذلك في نقطة في الطريق بين "مغنية" و"صبرة". كما قطعت الخطوط الحديدية في نقاط مختلفة. وأصبح الإفريقيون، يعتبرون الجنوب، على حدود الصحراء، منطقة غير آمنة. (1)

(1) الثورة الجزائرية - أحمد الخطيب - ص 170 - 171.

١٠٥
هذه الحركات الخفيفة المنظمة، تمكن جيش التحرير من بث الذعر والพอضى في صفوف العدو الذي فقد صوابه. وقد تمكن قوات جيش التحرير من حصار "فم الطوب" و "آريس" وقطع جميع المواصلات الهاتفية والبرقية بينها وبين بقية المدن، ودام الحصار ثلاثة أيام كاملة، كانت تصل خلاها النجادات والمؤن خامبيتي المركزين بواسطة الطائرات العمودية. وسيطر جيش التحرير على منطقة الأوراس التي تبلغ مساحتها (12) ألف كيلو متر مربع سيطرة مطلقة وقضى على جميع المراكز الاستعمارية في هذه المنطقة. أما في جبال "جرجرة" - القبائل، فقد ظهرت فيها القوات الوطنية فجأة، واستولت عليها، وأحاطت بـ "تيزي أوزو" أكبر مدينة فيها.

وأسرعت الإدارة الفرنسية في الجزائر بطلب النجادات من فرنسا. وفي 3 تموز الثاني - نوفمبر - (أي في اليوم الثالث لاندلاع الثورة) نزلت في ميناء عدنانية ثلاث كتائب من المظليين تم استقدامهم من فرنسا بأمر من رئاسة الحكومة. وكانت القوات الفرنسية بالجزائر يوم انفجار الثورة، تضم (700, 49) مقاتل. وعلى الرغم من ضخامة هذه القوات، فإنها ظلت عاجزة حتى عن حماية نفسها، ولم يتسن لها
التحرك والتجمع إلا بعد وصول نجدات كبيرة من فرنسا. وقد صرح سكرتير الدولة الأفونسية للشؤون الحربية آنذاك «جاك شوفالييه» بما يلي: «إن منطقة الأوراس هي في حالة ثورة حقيقية. وعدد الثوار فيها بين أربعمائة وأربعمائة وخمسون رجلاً، وهم يستخدمون الأسلحة الآلية - الأوتوماتيكية، والأجهزة اللاسلكية للإرسال والاتقالط، وهم يجوبون أعالي البلاد».

وكان لا بد للقوات الاستعمارية، أن تقوم بعمل يرد لها بعض الكبرياء المجروح و «الهيبة المفقودة». ولو بواسطة الدعاية المزورة - الملفقة - التي لا بد منها لحفظ سمعة الجيش الأفونسي. وقد تجمعت القوات الأفونسية في باتنة. وانطلق منها فيلقان يوم 5 تشرين الثاني - نوفمبر - الأوراس، بدعم القيام بعملية تطهير، ولم تكن هذه العمليات في الواقع سوى استعراض لعضلات الاستعمار الأفونسي، ومناورات قمع واضطهاد. وبعدها ببؤس ، انطلقت ثلاثية فيلق عسكرية في عملية إرهابية داخل البلاد - في اتجاه القبائل الكبرى وجبيل «آشمو». وقد عادت هاتان الحملتان دون أن تصادفا أي قوة للجيش التحرير، ولكنها اعتقلت بضع مئات من المشتبهين.

لقد أدت عمليات فدائيي المقاومة السرية في شن الهجمات الصاعقة، سواء بطريقة الزي المزيج أو الأنقاض المباغتة، إلى تحطيم أعصاب الجنود الأفونسيين، وعلى الخروص الدوريات المتجمولة، وحراس الثكنات والمستودعات الحربية، الذين يفقدون السيطرة على أوصياءهم إلهاً مع اختفاء ضوء النهار. فحين يحجم الليل بسواده الداكن، يخضعون لمشارع الفزع، ويتصورون كل شبح في الطريق.
فداً. ويصدقون كل لعنة هي مدينة موجهة لأعناقهم، وكل صوت هو صوت فقاعة سلاح. ويظن الواحد منهم أن كل دورية تبدد إذا هي جماعة من الفدائيين، فلا يلبث أن يطلق النار عليها، وعلى كل شجع أو شجرة أو حركة.

ومن القصص المثيرة والمعروفة، ما حدث في مدينة «معسكر» خلال الأيام الأولى للثورة، حيث كان السكان يحيم على المدينة، لا يعكر صفوهم سوى سير الدوريات المسلحة. وكان عقربا الساعة يلتقيان عند شارة منتصف الليل، عندما صدرت عن الجبهة الغربية للمدينة. قرب محطة الخط الحديدي - نيران رشاشة بغازرة عالية. وعند الصباح تبين أن جند اللحيف الآخري، فينون إيرانيجية - الذين يحرون مستودعات النفط قرب محطة الخط الحديدي، سمعوا صوت حركة بين الأعشاب، ففتحوا نيرانهم الرشاشة في أتجاه مصدر الصوت. ولم تكن الضحية أكثر من حمار شارد!

كان إعدام الحونة، والتعاونين مع العدو، هو الهدف الأول للمقاومة السرية و الجيش التحرير على السواء. فالخائن في العرف الوطني هو عين الاستعمار، وهو الجرثوم الحثرة التي يبتلي بها الوطن. وكما أن الجسم العليل لا يمكن أن يستعيد نشاطه، أو يبرأ من مرضه إلا إذا قضى قضاءاً على جرثومة العلة. فكذلك الشعب العربي وشعوب العالم، لا تستطيع أن تحرك أو أن تنطلق على درب الحرية والسياحة، إلا إذا تم لها استئناف عناصر الفساد، وقتل جراثيم العلة والبلاء فيها. وقد نجحت المقاومة السرية في القضاء على الحونة المارتين، أذنبا الاستعمار، وعبيد ماله. وأراح شعب العربي في الجزائر من لسعاتهم السامة. وكان آخر من سقط منهم مضرجاً بدم
الخيانة والفساد "عدة شنتوف" و "علي شكال" الذي نفذ فيه حكم الإعدام في قلب فرنسا. وهذان الجاسوسان ينتميان إلى المجلس الجزائري المزيف. "وابن التوك" شيخ الطريقة السنوية في "مستغانم". وتم عملية الإعدام بعد محاكمة المتهم حضورياً أو غيابياً، وبحث في هذه المحاكمة الأدلة والبراهين القاطعة التي تثبت إدانة المتهم، وبعد ذلك، علن رئيس المحكمة الحكم النهائي. ونفذ

هذا الحكم فوراً.

وبانتهاء حياة الخونة، أصبح جلاء المستعمرة عن الوطن الجزائري حتمياً، ففقد النهضة عيونه- جواسيسه- أصبح بدون مساعد أو معين، فكيف ينتج، يجد حرابة مسكونة تدميه. وسيوف مسلولة تقض مضاجعه. ولقد أظهرت عمليات إبادة الخونة أهميتها بسرعة مذهلة، فقد ظهرت الإدارة الإفريقية في الجزائر، وقبيتها العسكرية، أنها باتت غارقة في الظلام، ولم يعد باستطاعتها تقويم القوات الحقيقية للمثيرة، أو معرفة أي شيء عن نوايا الثوار وخططهم، فراحت تنعت رجال جيش التحرير بأنهم قطاع طرق (فلاقة) وذلك لتغطية ما ترتقبه القوات الإفريقية من جرائما التقتيل والإبادة والندم. وقدرت عدد رجال (الفلاقة) بضع مئات من الرجال، وأحياناً تزيد عددهم إلى بضعة ألاف - ثم إلى (15 ألفاً).

وبقي جيش التحرير محتفظاً بسرية عده وعده، وكان علن في كل المناسبات بأن: عده هو مجموعة الشعب، وأن مخازن الجيش الإفريقى هي مصدر سلاحه. وكان جيش التحرير عندما بدأ عملياته، قد قسم البلاد إلى ست مناطق عسكرية، وزع قواته عليها توزيعاً عكياً، وجعل على رأس كل منطقة قيادة مهمتها إدارة الحرب

109
وتنظيم أعمال المقاومة السرية. وحتى تتوافر لعمليات جيش التحرير المرونة وخفة الحركة والقدرة على المباغتة، فقد قسمت القوات إلى مجموعات صغيرة، تضم كل واحدة منها حوالي العشرين جنديًا؛ مسلحين بالبنادق الرشاشة والقنابل اليدوية، ولدى كل مجموعة جهاز لاسلكي للاتصال بالقيادة والمجموعات الأخرى.

ولقد أعى توزيع القوات الجزائرية، على هذا النمط، الجيش الإفريقية المجتمعية التي كانت تنطلق بين الفينة والفينة، في عملياتها العسكرية ضد الثوار الجزائريين. ولم تعثر هذه الجيوش خلال عملياتها الواسعة على أي إثر لافراد جيش التحرير الذين كانوا يراقبون تحركات العدو عن كثب. وبحذر نام. وحين يأتي الظلام، تشرع الدوريات الجزائرية في العمل، بينما تختفي القوات الإفريقية الضخمة داخل مراكزها الحصبة.

وقد وصف مندوب وكالة الصحافة الإفريقية الحالة في الأوراس خلال الشهر الأول للثورة بقوله: "تحافظ الجماعات المسلحة على وجودها مخفية، فهي في الليل، لا يظهر أحد منهم. وأثناء الليل، تشعل النيار في الجبال، نيران تتوقد وتحبو كأنها إشارات، وقد تصادف في وقت متأخر من الليل جرارات بأوضاع غير عادية تأكلها النيار وهي مسطحة على جوانب الطريق. ولكن ومع اقتراب الشهر الأول للثورة من نهاية، بدأت القوات الجزائرية بالتحرك نحوها، واخذت تنتشر الرعب في صفوف العدو. وكانت إلى جانب أعمال قطع أسلاك الهاتف والبرق، تقوم بهجمات خطيرة على مراكز الجيوش الإفريقية، وقوافل التموين، وأصبحت خطط جيش التحرير تعتمد على مبدئين أساسيين من مبادئ الحرب: الضرب
هيئة وبصورتها مباغتة، ثم الانسحاب بسرعة. وقد أذهلت هذه الخطط القادة الفرنسيين، فوضعوا خططهم المضادة التي تعتمد على الإبادة التامة والتمييز الشامل لقواعد الثورة. وضمن هذا الإطار قامت طائرات سلاح الجو الفرنسي مساء السبت (20 تشرين الثاني - نوفمبر 1954) بالإلقاء خمسين ألف منشور، ببيان على منطقة الأوراس. وتضمن المنشور المذكور ما يلي:

نداء إلى السكان المسلمين!

«إن بعض المحرضين المدفوعين من جهة أجنبية، أثاروا حوادث دائمة في بلدتنا، وهم يتمركزون بصورة خاصة في منطقتيكم، ويعيشون على خيراتكم، وإنهم يلزمونكم بمساعدتهم، ويسعون إلى اقتياد رجالكم في مغامرات إجرامية.

أيها المسلمون!

إنكم لن تتبعوه، وتستجتمعون عاجلاً قبل الساعة السادسة من مساء يوم الأحد 21 تشرين الثاني - نوفمبر، في مناطق الأمان التي سترشدوكم إليها القوات الفرنسية الضاربة في منطقتيكم مع موظفي الإدارة والدواوين.

أيها الرجال الذين خرجتم على القانون بغير تفكير، إذا كنتم لم تقتروا جرماً يعاظبكم، التحقوا حالاً بمناطق الأمان مع أسلحتكم، فلن يصبركم أي أذى. وستنزل المصيبة الهائلة على رؤوس المصابة.

ويسود السلام الفرنسي من جديد».

لم يستجب أحد من أبناء الأوراس لهذا النداء، ولم ينزل أحد إلى باتنة، أو سواها من مراكز الأمن التي حددتها القيادة الفرنسية،

111
فيما كان من هذه القيادة إلا أن مددت مهلة الالتحاق بمراكز الأمن لمدة خمسة أيام (حتى 26 تشرين الثاني - نوفمبر -) وأطلقت قواتها لإرغام المواطنين الجزائريين على مغادرة قراهم ومراكزهم. ونجحت في النهاية بحمل (280) عائلة من قرية «أشموئ» التي يزيد عدد العائلات فيها على الألف عائلة، بالنزول إلى «مراكز الأمن». وقد لوحظ خلو الرجال والأشداء والشباب، من بين الذين حملتهم القوات الفرنسية إلى «المعتقلات الإجبارية التي حلت اسم معسكرات الأمن» وقد جدير بالذكر ان عدد سكان الأوراس كان يتراوح بين (120) و (150) الف مواطن.

بعد انتهاء أجل الإنذار، خرجت خمسة فيلقاً فرنسيًا في اتجاه القرى التي رفضت الإنذار الفرنسي، وقامت بعمليات اعتقال وإبادة واسعة النطاق، اشترك فيها سلاح الجو الفرنسي وقذف فيها قرى الأوراس بقنابل النابال الحارقة. ولم تؤثر هذه العمليات الوحشية في نفسية الشعب. فظل صامداً يدعم قوات جيش التحرير في المنطقة، إلى أن ظهرت المجموعات الجزائرية فجأة في جبال «جرجرة»، وكان لظهور هذه المجموعات في هذه المنطقة من ولاية عمالية الجزائر، وقع الصاعقة على رؤوس الاستعماريين، إذ اعتبروا بداية التطور لعمليات جيش التحرير المنظمة. وأخذت تتحرك قوات الثورة تتوالي في منطقة الأوراس مع انتهاء الشهر الأول لبداية الثورة. وحدثت اشتباكات عنيفة مع القوات الفرنسية أدت إلى مصرع عدد كبير من الفرنسيين. وكانت خسائر الثوار محدودة جداً، نظراً لافادة هؤلاء من عامل المباغتة في توجيه الضربات. وحاولت الإدارة الفرنسية وقياداتها العسكرية قلب الحقائق، واتباع الأساليب الإعلامية الخادعة.
فأخذت تزعم أنها قتلت عشرات ومئات الثوار، بينما كانت البلاغات الإفرنجية تكاد تخلو من ذكر القتلى الإفرنجين.

غير أن هذا الأسلوب من الكذب والخداع، لا يثبت أن يكشف ذاته سريعة، ليفضح الأساليب التضليلية. وقد ظهر ذلك واضحاً في عملية حدثت في بداية شهر كانون الأول - ديسمبر 1954. ففي هذا التاريخ كانت قوة فرنسية تضم (100) جندياً تقوم بعملية (التطهير) في الأوراس. وقد أوغلت هذه القوة في تقدمها حتى وصلت إلى منطقة مكشوفة، وكانت إحدى المجموعات الجزائرية العاملة في هذه المنطقة تتبع تحركات القوة الإفرنجية عن كثب، وتحكم الخناق عليها، حتى إذا ما وصلت إلى المنطقة المكشوفة، انقضت عليها بالتغريء والانتحار، وأبادتها إبادة تامة. وفي الغد، جاء تصريح القيادة الإفرنجية بالصيغة التالية: «بينما كانت إحدى فرقتنا تقوم بعملية تطهير في الأوراس، هاجمتها عصابات مسلحة من الخارجيين على القانون - وتمكنت قواتنا من قتل (49) ثالثاً، أما خسائرنا فلم تتجاوز قتل جندي واحد وإصابة آخر بجراح».

قامت قوات فرنسية كبيرة بعمليات حصار وتفتيش في بلاد القبائل، يوم 14 كانون الأول - ديسمبر 1954، وكان هدفها الأول هو إرهاب المواطنين، لا سبياً بعد ظهور قوات الثورة الجزائرية في هذه المنطقة. وقد تلتها في 30 كانون الأول - ديسمبر - حملة أخرى تضم (4) آلاف جندي للبحث عن الجماعات المسلحة، ولم تصادف هتان الحملتان أحداً من رجال جيش التحرير، الذين كانوا كعادتهم يرافقون تحركات العدو، وينظرون انسلاخ قوات صغيرة عن القوات الكبيرة ليهجومها. غير أن الإفرنجيين كانوا شديدي الحذر، فلم
يجبرها على تقسيم قواتهن. بل أبقى مجتمعة تعمل كتلة واحدة، وهذا ما سبب لهم الفشل، لأن تتحرك مثل هذه القوات التي تافقها الدبابات والمدرعات الخفيفة، وتحرسها الطائرات من الجو، لا بد وأن تكون بطيئة عبر الدروب المتفرقة في المنطقة والخفيفة الحركة.

وكان الأوروبيون يعتقدون أنهم بحملاتهم الضخمة هذه يستطيعون إيقاف الثورة وختانها وهي في مهدها. غير أن الثورة نجحت في نشر قواتها وزيادة نشاطها. فبعد أن كانت عمليات الجيش محصورة في الأوراس إذا بقوات الثورة تنثر في بقية ولاية (عمالة) قسنطينة. ثم تمتد إلى بلاد القبائل (جبال جرجرة)، ومن هناك بدأ انتشار الثورة داخل ولاية (عمالة) الجزائر ذاتها.

استمرت القيادة الأوروبية في محاولاتها بالرغم مما أصابها من الفشل، فوجهت يوم 19 كانون الثاني - يناير 1955 قوة مكونة من خمسة آلاف جندي مدعمة بالمدفعات والطائرات للبحث عن مجموعات جند جيش التحرير في الأوراس. ثم أتبعتها قوة ثانية تضم أربعة آلاف جندي لتطوير عمليات البحث في شمال الأوراس. وعادت الحملتان بعد أيام دون تحقيق نتيجة تذكر. وخلال ذلك كان جيش التحرير قد وسع دائرة نشاطه حتى أمكن له السيطرة على منطقة الجنوب كله. ووقعت مجموعة من الاشتباكات الضارية في «كولون بيشار» و«عين الصفراء»، و«بوسعة»، واحتفى رجال جيش التحرير بعدها ليجاودوا ظهورهم في منطقة «وهران». وأصبحت الإدارة الاستعمارية وقيادتها العسكرية بحمي الغضب لهذا التطور، إذ كانت تعتقد حتى تلك المرحلة بأن ولاية «عمالة» وهران ساسة، لأن طبيعية وهران وتكونها يديغرافي لا يساعدان جيش التحرير على
التحرك والعمل في منطقتها.

وعلى أثر امتداد نفوذ جيش التحرير، وتعاظم نشاطه في كل أنحاء القطر الجزائري، عملت فرنسا على إقلاع الحاكم العام ليوارد وخلفه في منصب جاك سوستيل. وفي أول نيسان - أبريل 1955 أقرت الجمعية الأوروبية لمدة سنة العمل وقانون الطوارئ، وهو قانون يمنح القوات الأوروبية حريته العمل العسكري بالجزائر.

وتطورت نتيجة ذلك أعمال القتل والسلب واقتحام مساهك المسلمين الجزائريين عنوة في الليل والنهار بحجة البحث عن الثائرين، مع فرض رقابة صارمة على الصحاف والإعلاميات ومختلفات الإذاعة والفنادق السينمائية والمسرحيات وكل أنواع النشاطات الاجتماعية الأخرى. وقد أدى ذلك إلى انتشار القروي، وازدياد أعمال الاضطهاد، وانتشار الرعب. فما كان من القوات الجزائرية الثائرة في منطقة الأوراس. إلا أن زادت من هجماتها على القوات الأوروبية، وعملت على تصعيد الصراع، بزيادة الكمائن والهجمات على مخازن حلفاء الأوروبا الاستعماريين. ووقعت في هذا الشهر (نيسان - أبريل) حواجز تدميرية هامة في مدينة الجزائر، حيث دمر فدائيو المقاومة السرية معامل (باствоس) للسجائر، ومصنعاً للفلين.

جابت الإدارة الاستعمارية في الجزائر، والقوات الأوروبية المسلحة، ثورة شعب الجزائر بأعمالها التقليدية التي طالما مارستها منذ أن وطلت قواتها أرض الجزائر. ولقد صرح رئيس بلدية الجزائر، وكاتب الدولة السابق للقوات المسلحة، جاك شوفاليه، بقوله: "إنا لن نحارب بوسائل عادلة ضد الخارجين على القانون - إنا نحاربهم وفقاً لقانون الثأر، إنه الدفاع الشرعي من أجل مصلحة البلاد". 115
وهكذا، وانتقاماً من هجمات الثوار الجرائحة في شهر أيار - مايو وبعدة شهر حزيران - يونو- 1955، قام سلاح الطيران والبحرية وفرق المغاوير والمنظلين بعمل ثائر، فدمروا القرى العربية المحلية بمدينة "سكيكدة" الساحلية ونحوها ومسكانها من الموجود، وأصبحت هذه القرى أثراً بعد عين. وفي أواخر شهر تموز- يوليو، سقطت الجمعية الوطنية الإفريقية على تمديد العمل بقانون الطوارئ بأغلبية (382 صوتاً ضد (233 صوتاً لمدة ستة أشهر. وقد أعلن النائب الفرنسي "لويس فالون"، الهدف من فرض قانون الطوارئ بقوله: "إن في أؤكد بأن طلب الحكومة الفاضي بتحديد حالة الطوارئ هو اعتراف ظاهر بفشل سياساتها المبنية على القمع والاضطهاد، وليس على الكفاح ضد الأسباب الحقيقية للثورة". وانطلاقاً من هذه الحقيقة وقعت مؤامرة "سكيكدة" التي يمكن تلخيص مآسائها بالتالي:

قامت قوات الثورة بمهاجمة "سكيكدة" في العشرين من شهر أب - أغسطس - وحاصرتها حصاراً محكماً، واشتبكت في معارك ضارية مع حامية المطار الحربي فيها، وقتل خلال هذه المعارك (200) جندياً فرنسيًا. وعلى أثر هذا الهجوم الصاعق، قامت القوات الاستعمارية بعدوان انتقامي من سكان "الحي العربي" في المدينة والقرى المحيطة بها. وفيما أن الرجال كانوا قد غادروا منازلهم والتحقوا بجيش التحرير، فقد وقعت أعباء المذبحة الرهيبة على النساء والأطفال والشيوخ العجوز. واعترفت السلطات الإفريقية بمقتل النساء والأطفال، وجاء في هذا الاعتراف: "أن قتل النساء والأطفال كان نتيجة اشتراكهم في المعارك الحربية". ولكن المعارك حدثت يوم
هجمات المواطنين على سكيكدة - أي السبت 30 آب - أغسطس - في حين وقعت مذبحة النساء والأطفال يوم الثلاثاء 31 آب - أغسطس - وعلى هذا فإن اعتراف المسؤولين الأوروبيين لم يكن إلا ستراء لتبويه الحقائق وإخفاء الجرائم الوحشية. وقد نقلت الصحيفة الأوروبية «لوموند» صورة عن هذه المذبحة، بالكلمات التالية:

«إني أذكر ما شاهدت، فقد رأيت كثباً مشدداً على وقتهجم في حين شاهدنا، وآخر ينبع من الجزء الأخري للطريق، ورأيت دجاجاً ينقر بين الجثث بكل هدوء ... لقد ميزت بين الضحايا بكل سهولة كثيراً من الأطفال الذين لم يبلغوا العاشرة من عمرهم، كما أنني لا أذكر أن شاهدت رجالاً كهولاً يلمعهم. وإنني أرى جيداً لأعطي بعض الأمثلة: فتاة جلالة على ركبتيها، ورأسها بين يديها ... وأرى شيخاً ومجموعة مكونة من ثلاث نسوة، لم يزلن يحملن أطفالها بين أيديهن، أما بقية السكان، فإنهم عبارا عن جثث هامدة مبهرة بين الأكوام ... الحقيقة أنه لم تكن تتبعت أية راحلة من هذه المنطقة مما يبعث على الدهشة إذا صح أن الجزيرة حدثت يوم السبت، أي يوم المعركة، ولقد تحقق كذلك أن الدماء المجمدة لم تزل حمراء ... لقد كانت الفوضى هامة، مما يفسر بأن الأهالي كانوا يفررون في كل اتجاه أثناء المذبحة ... وإمكانية التأكد: بأنه إذا لم تكن المذبحة قد حدثت صباح الثلاثاء، كما تبين لي من كل شيء، فإنه ليس من العقول أن تكون قد حدثت يوم السبت».

كانت مذبحة وحشية، أكدت للجزائريين مرة أخرى - بعد الألفين - طبيعة الاستعمار الأوروبي، وما تميز به من القسوة والطرد، وبرهنت من جديد أيضًا للجزائريين المسلمين أن الطريق...
الوحدة لبناء مستقبلهم هو طريق طرد الاستعمار الصليبي الأفرنسي مرة واحدة إلى الأبد، مما بلغ حجم التضحيات. وعلى هذا فقد زادت المأساة من تصميم المجاهدين على تطوير الجهاد، فشمت قوات جيش التحرير بحصار مدني في "سكيكدة" و"كولو" وقطع عنها سبل الاتصال بداخل القطر، وحرمتها من الماء والكهرباء، واستباح الساحل الفلسطيني إلى جحيم لا يطاق، لا سيما بعد تدخل الاستولى الفرنسي في المعركة، مما حمل المسلمين في المدن إلى الفرار بأنفسهم نحو قواعد الثورة للخلاص من الإرهاب الاستعماري. ولم تلبث قوات جيش التحرير أن أنسحب تنفيذاً لخططها الحربية، وعادت لممارسة عملياتها الصغرى في نطاق الاغارات والكمائن. وما كادت الحالة تهدأ نسبياً في عمالات (ولاية) قسطنطينة حتى اشتدت في مدينة وهران. كما برزت قوات جيش التحرير بصورة مباغتة في دائرة "تلمسان" والتحمت بالقوات الأفريقية التي كانت مركزاً جهدها على الساحل الفلسطيني، والتي لم تكن تتوقع وجود مثل هذا العدد من الثوار في "تلمسان". وأسفرت المعارك عن انتصار قوات الثورة انتصاراً رائعاً، أرغم الفرنسيين على التوقف في تكناتهم ومعسكراتهم.
6 - انطلاقرة الثورة في كتابة قائد فرنسي

الجناز يَّنَبُزْرُ من الضباط الاستعماريين المعروفين، اشترك في حملة السوس، وكان في سنة 1956 قائداً لمنطقة قسنطينة، وقد انصرف بعد تفاعيديه للكتابة العسكرية، وقد جاء في كتابه «الحرب الثورية» فصل الحرب الثورية المعاصرة في البلدان الإسلامية - الحرب الجزائرية - ما بقي:

تعطي الحرب الجزائرية مثلًا هاماً بصورة خاصة، لأنها نجمت عن موقف متطرف ففي بداية الأمر لم يكن الثوريون سوى حفنة من الرجال، ليس بحوزتهم سوى وسائل مضحكة. وجابوها فرنسا التي كانت تبدو قوتها في تلك الفترة فئة ساحقة. وبالإضافة إلى هذا، كان الشعب الجزائري بالرغم من خيبات أمله المتعددة، لم يتضحي بعد للثورة (؟) رغم هذا، فقد قرر الثوار التاريخيون، للفترة الثورية الموحدة والعمل، الذين شجعتهم هزيمة - الفرنسيين - في ديان بيان - فو، والنتائج التي حرقها العصبات التونسي (الاستقلال الذي الداخلي) بالانتقال الى العمل. وكانت فكرتهم في هذا الوقت هي إبقاء الجماهير الجزائرية من غفوةٍ بظاهرة غنية، تثبت إرادة الاستقلال لدى الشعب الجزائري. وكانت هذه التظاهرة قد صممت

120
 بصورة رائعة، لأنها استهدفت الروعة في إشارة الخيالات والصورات، وبالإضافة إلى هذا، رسمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل، منذ البداية، خطأ سياسيًا واضحًا جداً؛ استهدف في الوقت ذاته الاعتماد على التقاليد الإسلامية - من شرب الحمرة والتمدن - ومارس إرهابًا شديداً كمم بسرعة كبيرة أفواه الشعب أمام السلطات الإفرنسيّة (قطع الأذن - اغتيال عامل الإدارة الإفرانسيّة من المسلمين - الذبح أمام شهداء) وتجمّع القيادة بذكاء حاد كل مجابهة مباشرة مع القطاعات الإفرانسيّة - باستثناء اللجوء إلى الكمائن والاغتيالات على مختلف أشكالها.

كان من حظ الثوار - التاريخيين - في هذا الوقت أنهم هاجمو عمالقة ذا قدمين من صلصال: فقد كانت الإدارة الإفرانسيّة في الجزائر متصلة، متصلبة، وغير كافية للالشراف الكامل على البلاد. بالإضافة إلى هذا، شلت مجموعة القوانين الشرعية - التي تعتبر

---

(1) جدير بالذكر أن قيادة منظمة التحرير، وقيادة جيش التحرير، لم تثبت أن حركتها الذبح أمام شهداء، بسبب تنافسها مع الشريعة الإسلامية، أما في موضوع الأرهاب - المشار إليه - فقد كان هو الوسيلة الوحيدة لمجابهة الأرهاب الاستعماري، وحماية الثورة ورجالها. وبدأت أبناء ثورة الجزائر، أن هذا الأرهاب قد وجه بصورة خبيرة ضد الخونة التحاونين مع الإدارة الاستعمارية (من المعمرين). وقد حفزت وثائق الثورة الجزائرية تأجج كثرة وطرق مختلفة لتنفيذ هذه العمليات في الجزائر، وفي فرنسا ذاتها - ومنها على سبيل المثال: توجه بين طاقات إدارية تجاهل رسمًا مهينة - جمهورية من تحديد وقت التنفيذ. وكان هذا التنفيذ يتم في موعدهما كانت الظروف. ومن ذلك القصة المعروفة ببلجوم أحد العملاة إلى الإدارة الإفرانسي طالب حاليها عندما تلقى الانذار بإصدار حكم الثورة عليه بالاعدام. وكان أن أردهاته السلطات الإفرانسيّة السجن لحمايته. وقدم رجل آخر - جزائري - جمل الشارة ذاتها، فاردها السلطات الإفرانسيّة السجن إلى جواز من سببه. ومضت فترة الأذان، وفتح باب السجن، وخرج الجزائري المهدد. وتفتقد السلطة الرجل الآخر، فوجدته مقتولاً، وعرفت أن المنفذ هو الرجل الآخر.
الجزائر فرنسية وتطبق فيها القوانين الإفريقية لزمن السلم عملياً كل قمع فوري للثوار. وعلى سبيل المثال: فقد كانت القوانين المطبقة في عام 1945 في قسنطينة مختلفة كل الاختلاف عن القوانين الموجودة في المنطقة ذاتها في سنة 1954. ففي عام 1945، كانت الأحكام العرفية والمحاكم العسكرية العرفية قائمة. وفي عام 1954 كان استخدام القطعات مرتبطاً بالسلطة المدنية، وكان على قوات الدرك الجزئية أن تحقق في كل المعارك مع معضض ضبط وشهد. وهكذا جنت فرنسا على نفسها بالقوانين التي وضعتها(1).

وفضلًا عن هذا، كانت الوسائط العسكرية الإفريقية في الجزائر مثيرة للضحكات (49). ألف رجل أكثر من نصفهم من الجزائريين. وهذا السبب، وبسبب وجود رجال في السلطة (مثل ميتران في الداخلية، وليونارد في حكومة عموم الجزائر، والجئرال شيرير. في الفيلق التاسع عشر التابع للجزائر العاصمة، والجئرال سبيلمان في فرقة قسنطينة) كانت عملية القمع الأولى تدعو إلى الهزء والسخرية، بالرغم من ضربة ناجحة وجهها العقيد دوكورنو للثوار في الاوراس. وأضافت فرنسا فرصة وحيدة كان بالمستطاع استغلالها لتحقق في المهد، تلك الثورة التي قام بها بضع مئات من الرجال، في الوقت

(1) هذه الذرائعية للدفاع عن أسباب فشل خنق الثورة غير صحيحة وغير دقيقة تمامًا. فقد برمحت سيرة الأحداث على تحرك فرنسا الفوري، واستخدام كل وسائل القوة المتوفرة والتي كانت أكبر بكثير من قدرة الثوار عند انطلاقهم بثورتهم. فلم تكن فرنسا هي الضعيفة في هذا الموقف، وإنما كان الثوار هم الأقوياء. وكذلك الأمر بالنسبة لمقولة بوفر من أن الشعب الجزائري كان مرتبطاً بفرنسا. ولو كان الأمر كذلك، لما قامت الثورة أصلاً، وما حققت ما أنجزته من الانتصارات.
الذي كان فيه الشعب الجزائري بكامله مرتبطة إلى حد كبير بفرنسا.

ولا نحصل هنا على أحد أكثر الدروس وضوحًا في هذه التجربة: في الوضع الحالي، لا تكون الثورة معرضة للخطر والخطر إلا في مرحلة قيامها. ولكن للإفادة من حساسية الثورة، واحتمال تعرضها للخطر والحنق في بدايتها، ينبغي أن تتمكن قوى الأمن من الحصول فورًا على الوسائل المادية والشرعية الضرورية لعملية القمع. ولم يكن هذا هو الحال ضمن إطار التشريع الإفريقي في ذلك الوقت، والذي شل مرازاً، بنوايا جديرة بالثناء، ولكنها نوايا ساذجة.

شرع الثوار الجزائريون، بعد أن نجحوا في الظهور بشكل بارز على المسرح بتوسيع بقعة الزيت التي شكلها مناخ عدم الأمن، وهم يملكون إحساسًا صابًا جدًا بالاستراتيجية الملائمة لثورتهم، وكان قطباً الاضطراب هما قلعتا البربر: الأوراس ومنطقة القبائل. ومن الأوراس انتقلت الثورة تدريجياً حتى شملت قسنطينة كلها، في حين نشرت القبائل نفوذها على محافظة الجزائر والجزائر العاصمة. وإضاء هذا الموقف الذي كان يتفاقم يومًا بعد يوم، قامت حكومة "ادارفور" بارسال "سوستيل" إلى الجزائر في شباط - فبراير 1955 كحاكم عام. ويعتبر سوستيل رجلاً ليبراليًا كان يأمل أن يستطيع تطبيق سياسة إصلاحية، وفي انتظار قيامه بهذه الإصلاحات طلب نجدات من العاصمة - باريس - فارتفع عدد القوات الإفريقية في الجزائر إلى 83 ألف رجل. في غضون ذلك، وفي مئزر يوليو، وجدت منظمة التحرير الوطني نفسها قوية بدرجة كافية لشن عصيان شامل في كل محافظة قسنطينة. وكان هذا العصيان همياً من المذاهب الشرسة.
نجم عنها إحجام "سوستيل" عن اللجوء إلى التسوية التي كان يفكر فيها. فتشددت فرنسا في موقفها، وأرسلت نجدات جديدة من فرنسا والهند الصينية إلى الجزائر، واحتلت محافظة قسنطينة بالقوة. غير أن حمى الثورة انتقلت إلى وهران، وعم الفساد محافظة الجزائر، واستشرت الفوضى بصورة عامة.
أطلق الثوار التاريخيون شرارة الثورة بالهجوم على أكثر من ثلاثين موقعًا في مختلف أنحاء الجزائر ثم أخذ الثوار بالانسحاب، إلى قواعدهم الحصينة في جبال الأوراس. وتلقت القوات الفرنسية دعما عسكريا لمتابعة الأعمال التي أطلقت عليها اسم (إجراءات الأمن) أو (تدابير التهدئة)، وانطلق (الجنرال جيل) بعمليات التهويه، التي تم خلالها اعتقال أكثر من ألفي جزائري. وفي هذا الشهر ذاته - الأول من قيام الثورة - أطلق الجنرال جيل على المجاهدين اسم "الغلالة". كما أطلق هذا الاسم ذاته على عملياته الحرية. وفي الشهر الثاني من قيام الثورة، قامت القوات الفرنسية بعملياتها في قلعتي الثورة: الأوراس ومنطقة القبائل. وأعلن المستوطنون الأوروبيون سحقهم على الحكومة ومعارضتهم لسياستها - المثوّرة على حد زعمهم. ولكن الإدارة الاستعمارية كانت مضنية في تطوير أعمال القتال، وزيادة حجم الاعتقالات، لا سيما بعد أن عملت على حل حركة انتصار الحريات الديمقراطية "بالرغم من إعلان السيد قاره، وابن جلول، نائب قسنطينة، معارضتهم لفكرة استقلال الجزائر التي طرحتها الثورة.

125
ويظهر ذلك أن طريق الثورة لم يكن ممهداً، فقد كانت هناك عقبات كثيرة - داخلية وخارجية - تعرقل مسيرة الثوار الذين ماضوا بعزيمة لا تفتر، وإرادة لا تلين على تدليس تلك العقبات، واحدة بعد أخرى، حتى استقام درب الثورة، وتلامح الشعب مع ثورته.

كانت المشكلة الأولى بالنسبة للثورة خلال مرحلة انطلاقها، هي مشكلة التنظيم والتجهيز، فبعد الهجمات الأولى، أقام جيش التحرير قواعده في الكهوف والمغافر الجبلية في قبيلة والأوراس وشمال قسنطينة، وهي أماكن رائحة ممتازة، تصلح لحرب العصابات، وركز الفرنسيون هجماتهم المضادة في الأوراس، حيث استخدموا الطائرات والدبابات، وعملوا على عزل جيش الثورة عن المواطنين بواسطة "تجميع القرى الموالية لهم" و "إبادة القرى الأخرى التي يشكون بولائها لهم". وكان يتولى قيادة جيش التحرير في الأوراس قائدان ممتازان هما مصطفى بن بولعيد وشبير شبحاني، وكانت المنطقة التي يعملان فيها جبلية وعرة المسالك تقيم فيها عدة قبائل من البربر، أدى اختلافها العنيف في ولائها للชาวه، أو معارضتها لهم إلى جعل المجاهد المشترك أمراً صعباً للغاية. وبعد استشهاد عدد من القادة العسكريين المحليين على التعقاب، وخلال فترة قصيرة، لم يعد من السهل على قائد واحد أن يتولى السلطة الكاملة (وقد استمر ذلك حتى سنة 1957). ولكن على الرغم من ضعف التنسيق الداخلي، في هذه المنطقة، فقد ظل عدد أفراد جيش التحرير في ارتفاع مستمر.

أما المجاهدون في منطقة قبيلة، فقد خرجوا بصورة أكثر تدريجاً وبطلاً. وكانوا تحت إشراف قادة أكفاء أيضاً، من أمثال: كريم بلقاسم ورمضان عبادة وعمارة وناصر. وركز المجاهدون جهدهم، بعد
الهجمات الأولى، على إزالة الحزنة، وهي مهمة استغرقت منهم تسعة أشهر على أقل تقدير. أما في شمال قسنطينة، فقد تمكن يوسف زيروت - وهو من القادة الأكفاء بدوره - من تنظيم الحدود الجزائرية-التونسية بنجاح، وسرعان ما حقق الاتصال مع البعثة الخارجية لتأميم الأسلحة للثورة. ولم يتأثر الثائران في الولايات الثلاث تأثيرًا خطيرًا من حل «حركة انتصار الحريات الديمقراطية» ومن اعتقال عدد كبير من القادة الوطنيين. ذلك أن عمليات الانقاذ العمياء التي مارستها القوات الأفريقية، وإبادة القرى، قد أسهمت في توزيع صفوف الثورة، وتطوير جيوسها. وبذلك تكون فرنسا قد خدمت قضية الثورة على غير إرادة منها، وخلاقًاً لما كانت تريده.

كانت المشكلة الحادة الثانية، هي مشكلة الحصول على السلاح ووسائل القتال. فقد وجدت الثورة نفسها وهي تجابه القوات الأفريقية المتحفزة، وليس لديها إلا القليل من السلاح، الأمر الذي كثيرًا ما دفع الثائران إلى اقتحام المخاطر، ومهاجمة المواقع العسكرية الأفريقية، للحصول على السلاح فقط. وكثيرًا ما كانت مثل هذه العمليات ترتيدي طابع المغامرة الخطرة وغير الأمانة. وهكذا، لم تمض أكثر من أشهر ثلاثة على بداية الثورة، حتى أصبح مجاهر الأوراس بدون عتاد تقريباً. فمضى العقيد مصطفى بن بولعيد في مهمة للحصول على بعض العتاد، عندما اعتقل على الحدود الليبية. و أدت مشكلة النقص في الذخائر والأعتداء إلى ظهور بعض الخلافات - وحتى الحزادات. بين المجاهدين فوق أرض المعركة من جهة، وبين رفاقهم من أعضاء البعثة الخارجية (وزال هذا السخط بصورة طيعة في سنة 1957) عندما تمكن القادة في الخارج من شحن كميات ضخمة من
السلاح والعتاد إلى الثورة.

كانت المشكلة الاستراتيجية الأساسية التي واجهتها الثورة في الأشهر الأولى، هي توسيع نطاق الثورة من الجبال الواقعة في شرق الجزائر إلى سهول قسنطينة وغيرها. وكان من الضروري، والملح جداً، توسيع هذا النطاق، لا سيما وأن المفاوضات الطويلة بين تونس وفرنسا حول الحكم الذاتي المحدود، كانت قد وصلت إلى نهايتها. ووقف الجزائريون الذين كانوا يعتمدون على حد كبير على مرور الأسلحة والرجال اليهم عبر تونس، إلى جانب زعيم حزب الدستور التونسي الجديد، صالح بن يوسف، في معارضته لسياسة الحبيب بورقيبة الرامية إلى الاستقلال على مراحل. ولكن بعد توقيع اتفاقية الحكم الذاتي التونسي، ومحاكمة صالح بن يوسف وصدر الحكم بإعدامه، أعادت جبهة التحرير الوطني الجزائري تقويم موافقاتها السياسية، وأخذت في التعاون مع بورقيبة في قضية نقل الأسلحة والعتاد، وفي المهام الدبلوماسية. ولكن عدا أبو من زعاء الجبهة آنذاك، كان يؤثر لى استمرار التونسيين في القتال، إلى أن تنازل كل من تونس وجزائري استقلالها الكامل.

***

تلك هي السطور الأولى في الملحة الرائعة لتغرة شعب الجزائر المجادل. وهي سطور تقصر عن وصف المعارك التي عرضت لها الثورة في أيامها الأولى. وتبقي القصة المثير في ملحمة الثورة هي تلك التي نسب الثوار خيوطها، بجرأتهم وإقدامهم، ببطلتهم وإيمانهم، بعنانهم وضحايهم. هناك فوق ميادين الجهاد، حيث تختلط كل المشاعر الإنسانية لتفجير عن إبداع تفجر الحياة ذاتها عن
إيذاء كل معالمة وأبعاده. هناك فوق ميادين الجهاد، حيث تنصهر كل الانفعالات في بوتقة واحدة، بوتقة الإيمان والحب، الإيمان بإله، والحب للوطن وأهل الوطن.
الإعداد للثورة

لقد بدأ تاريخنا بتفجير الثورة في خنشلة، هذا ما قاله أحد الأبطال من عاشوا مرحلة مخاض الثورة، وشاركوا في تفجيرها. ولكن الوصول إلى هذه البداية، بداية الثورة، يتطلب العودة لاستقراء ملامح تلك المراحل المختلفة للأنشطة الوطنية التي قامت بها مجموعة من الطلاب الشباب الذين أخذوا على عاتقهم مسؤولية إيقاظ الوعي الوطني، بعد ما أدركوه من الأعباء المرهقة التي تلقى بكل ثقلها على الحياة اليومية للشعب الجزائري، والمواطن الجزائري، وقد بدأت مسيرة الأحداث بالتحرك، عندما قامت خليفة من الطلاب المجاهدين فأمسكت بزمام المباداة، وأخذت في توجيه الأحداث من خلال الإمساك بقيادة الحزب، لا سيما بعد أن تم إقلاع عدد من المسؤولين فيه. ومن ثم اتخاذ الموقف الحيادي، وانتهاج سياسة استقلالية بعد تمرّق الهيمنة الثورية للوحدة والعمل تحت ضربات الاستعماريين.

REF: RECITS DE FEU (SNED ALGER) P.P. 1 29

(1) والكاتب الباحث هو سالم بوبكر، وهو من قادة المجاهدين في حركة انتصار الحريات الديمقراطية، ثم في التنظيم السري للمهجرة الوطنية للوحدة والعمل، وقد شارك الباحث في مرحلة الإعداد للثورة وهي تنفيذ عملياتها، وهو هنا يعرض تفجير الثورة في خنشلة، بصورة الواقعية.
أخيراً، مرحلة الإعداد لثورة الفاتح من نوفمبر- تشرين الثاني 1954. والعمل على تفجيرها. وقد تم ذلك في «خشنة» على الرغم من كل العوائق التي لم يكن أقلها على سبيل المثال عدم توافر أكثر من سبع قطع أسلحة في أيدي المنذنين، بينما كان من المقرر وفقاً للمخطط الأساسي الذي أشرف على وضعه «مصطفى بن بولعيد» تأمين ما لا يقل عن أربعين قطعة سلاح وإشراكها في المعركة.

لقد بدأت القصة على كل حال إلى عام 1950 - حيث تم الاتصال بالوطنيين في خشنة، وكان هؤلاء يتقون ثقة مطلقة بضرورة وجود حزب وطني ثوري منظم - يتولى قيادة الصراع المسلّح من أجل استقلال الجزائر. وكان مناخ هؤلاء الشباب كافياً لإثارة الحماسة في أوساط الطلاب وتنظيمهم وإعدادهم للعمل الذي سيتفجر في الليلة التاريخية. وكان يتم ضمه المتطوع بصفة «مهدد هادي» حتى إذا ما برهن على كفاءته، أصبح مسؤولاً عن إحدى الخلايا. وكانت الحليّة تضم المجاهدين من مختلف الفئات الاجتماعية للشعب، وأولهم بدهياً فئة الفقراء البائسين. وكان البداية الثابت هو: «أن خدمة الوطن ليست حكراً لأحد». وتعرف المجاهدون الشباب من خلال تنظيمهم على تاريخ الجزائر. وجهاد الشعب الجزائري ضد الاستعماريين، وهو الجهد الذي لا بد من استمراره حتى يستعيد الوطن حريةه، وحتى يتم له استقلاله. وكان هؤلاء الطلاب الشبيبة يترجمون عقيدة الحزب بالحماية للقضية الوطنية، وبالإدارة الطوعية للعمل، وكذلك بالانضباط الذاتي واحترام التوجيهات العامة للقيادة. وقد ساعد التكوين السياسي للحزب على تغيير مفاهيم هؤلاء الشباب وموافقهم تغييراً تامًا. وظهر هذا التغيير في علاقات الشبيبة.
بعضهم ببعض وعلاقاتهم مع جماهير الشعب. فالأمس القريب، كان هؤلاء الشبيبية يعيشون حياة اللامبالاة في عالم غامض مضطرب، يحيط بهم الفواعل السياسية، ويحفزهم غياب القيادة التي ترى الأمور بوضوح تمام. وها هم بعد أن انضموا لتنظيم الحزب وهم يعرفون أهدافهم، ولديهم الاستعداد للتضحية بحياتهم من أجل حياة وطنهما ويشرون حياة التضامن، ويشرون بالأحمر الحقيقية لكل إنسان جزائري. ولم يعد الجهاد بالنسبة لهم مجرد شعور يرفعونه. لقد أصبح مضمون الجهاد يفرض عليهم العمل الدؤوب والجهاد، ومناقشة المواقف السياسية بعقلية متحررة، من أجل تحسين النظرية إلى ممارسة عملية. وأصبح كل فرد من الطلاب، على الرغم من حداثة سنه وصغر عمره الزمني، وهو يتمتع بقدر كاف من التفاؤل الذي يمكنه من تحميل المسؤولية، واكتشاف الحقائق السياسية والاجتماعية التي تتطلبها بلاده: «لقد أصبح حب الجزائر هو كل شيء في حياة هؤلاء الشبيبة».

انحصرت أنشطة الشبيبة في الحزب طوال الفترة ما بين العام 1950 والعام 1954 بالأعمال الروتينية - الروتينية - والتي كانت تمارسها كل الأحزاب السياسية، ومنها: تنظيم الخلايا والاجتماعات، وإجراء المقابلات، وخصوص المعارك الخطابية، وبيع الصحف والنشرات التي يضعها الحزب، وجمع الاشتراكات، ووضع البيانات التي تتضمن الشعارات المعايدة للاستعمار، وكتابة الشعارات الوطنية على الجدران والتركيز بصورة خاصة على ما يضمن للناس التطلع مع أهداف الحزب، من خلال شرح المذكرة الشهيرة التي قدمتها (حركة انتصار الحريات والديمقراطية) إلى
مجلس الأمن، والتي تطالب بإقامة دولة جزائرية تعمل في إطار الحياد الإيجابي بين الدولتين العظمتين: الإمبريالية والاشتراكيّة. وأخيرًا، البحث عن الوسائل لدعم الروابط مع الكتلة العربية- الإسلامية، وتحقيق اتحاد دول المغرب العربي- الإسلامي (شمال أفريقيا).

ومن يكن باستطاعة الحزب وهو يمارس هذه الفعاليات كلها المحافظة على سرية تنظيمه. وخلال هذه الفترة، ونتيجة عملية توزير الانتخابات، أصبحت كل التنظيمات الحزبية مكشوفة، مما جعلها عرضة لضربات الإدارة الإفرونية. ولم يحدث أن بدأت بعض الحركات الوطنية بالتنظيم السري، إلا بعد عمليات الاعتقال الجماعي للمناضلين، في إثر المؤامرة الإفرونية ضد حركة (انتصار الحريات الديمقراطية) في نيسان - إبريل - سنة 1950، وما أعقب ذلك من عمليات انتقامية ضد مواطني الأوراس ومواطني سيدي علي بونوي ونيدورما وماغنيا. لا سيما وقد أصبح أعضاء الحزب درية لسهام السلطة، مما دفع الكثيرين للانسحاب منه، وهكذا أخذ الحزب في الانتقال إلى العمل نصف السري - مع إعادة تنظيم الحزبا بسبب انحساب بعض المسؤولين القدامى في الحزب.

وجدت هيئة الحزب في (قسا) أنها باتت مكونة من خمسة أعضاء يمثلون (حركة انتصار الحريات الديمقراطية)، وأصبح لزاماً على هؤلاء عقد اجتماعاتهم الدورية - كل أسبوعين - في مكان سري، وبقي الأمر كذلك حتى شهر آذار- مارس 1954. حيث تم الانفصال عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية. فانتحلت مجموعة (قسا) التابعة لمركز (خشيلة) موقف الحزب الإيجابي والمستقل عن الكتلتين الأساسيتين

١٣٣
المتصارعون على مستوى القمة، واللتين كانت أحيانا ترفع شعار
هيئة المركزية، والثانية ترفع شعار "النكتة - خلف مصالي
الحاج". وكان الهدف من اتخاذ موقف الحياد برئاسة "عباس
لغرور، وتوجيه "بشير شحان"، هو محاولة توحيد كل القوى في
أوساط الحزب ودعمه وتجديدة.

لقد كان هذا الحزب الوطني الجزائري، هو أقرب الأحزاب
لتطلعات كتلة الجماهير الشعبية، وهو أملها الوحيد، وقد جاءت
هذه الأزمة الداخلية مناسبة لبعض أعضاء الحزب - الذين أنعمهم
النضال - فقروا الإعلان عن انسحابهم من دائرة الصراع،
وتخلصهم عن النضال المضاد للاستعمار. ورافقت ذلك حالة من
اليأس - من انتصار القضية - علاوة على ما كان يثيره الغموض في
الموقف السياسي، والاتجاه الخاطئ، الذي أثاره تخلل الحزب
الوطني، وهو الذي بقي طويلاً في طليعة الأحزاب الوطنية حامسة
وانتفاعاً في مجال العمل لاسترجاع الحقوق الوطنية. وظهر بأن
الأمال كلها قد ضاعت وتمزقت يوم قررت حلفة من المجاهدين
متابعة الصراع حتى تحقيق النصر النهائي. يعني ذلك - انتزاع
الاستقلال باللجوء إلى وسيلة الصراع المسلح، واستخدام العنف
الباشر، وإحياء ليب الثورة التي بدأت جذورها بالحمود في نفس
الناشرين - فتم طرح فكرة "الثورة الشاملة" باعتبارها المخرج
الوحيد لتحرير الجزائر. وكانت هذه الحلفة من الرجال تمتلك إياناً
راضاً لا يتزعزع، وخلقاً كريماً، واستعداداً للتضحية بكل شيء
من أجل قضية الوطن.
عقدت جماعة التكتل دخل مصاصي الحاج، مؤتمراً لها في 15 تموز- يوليو- 1954 بمدينة هورنوك، ببلجيكا، ومتلف خنشلة، في هذا الاجتماع، الحاج عبد الله مراد، وفي 15- آب- أغسطس- 1954 عقدت جماعة اللائحة المركزية، مؤتمراً لها في مدينة الجزائر، اشتركت فيه خنشلة كل من لغرور وشيحياني، بصفتها مراقبين، لا يحق لها الاشتراك في المناقشات، نظراً لما هو معروف من مواقعها الموصوفة بالثورقة المتطرفة. وكانت فائدة المؤتمرين كبيرة من حيث نتائجها التي دهمت مبدأ ضرورة الانتقال مباشرة للعمل العسكري، وأصبح هذا الانتقال هو الفكرة المهمة على تفكير معظم المجاهدين الذين خابت آمالهم نتيجة انقسام الحزب وتمزقه. والمهم هو أن هذا التمزيق في تصويره، انتشر الفهاد الحزب فقد بقيت سلطة وصلصة لفكرة الثورة، ومبادئها، ولم تظهر أي نتائج أو لراجع عن خط الثورة. كما لم تظهر أي اهتمام بتلك الصراعات المحتدمة في القمة والتي كانت ذات صفعة حزبية أو شخصية، أو من أجل النفوذ والسلطة على المستوى الداخلي للأحزاب.

وقد انتهت تلك الصراعات بإكاب المجاهدين المزيد من التصميم والمزيد من التصلب في مواجهة ما كانت نظرة قيادة الكتلتين المتصارعتين من عناد وتصلب، وهما متجاهلان ما كانت تطرحه العناصر النقية والطاهرة في الحزب من أن حرب التحرير، قد باتت هي المخرج الوحيد لما أنزلته الكتلتين المتصارعتين بالحزب، فانحدرتا به إلى المستنقع. وتابعت العناصر المخلصة طريقها وهي تطالب
بالحاج تكوين حركة ثورية صلبة، لديها التصميم للانتقال إلى العمل العسكري المباشر- طريق الثورة.

مرت الفترة من شهر آذار - مارس - إلى حزيران - يونيو - من العام 1954، وخلايا المجاهدين في "خنشلة" تمارس نشاطها وسط مناخ من الشكوك، وترفض إجراء أي اتصال مع قيادة الكتليتين المتصارعتين. لقد كان عملها مركزاً على قواعد الحزب، حيث وجهتها نحو شراء الأسلحة. وأثناء ذلك كان بعض المناضلرين في المدن يصدمون بعضهم ببعض، ويتنافسون فيها بينهم، هؤلاء الذين يريدون بيع "صحيفة الجزائر الحرة" الصادرة عن جماعة التكتل، وأولئك الذين يريدون بيع "صحيفة الأمة الجزائرية" الصادرة عن جماعة اللجنة المركزية. وكان الصراع بين الكتليتين كثيرًا ما يعيق مشاريع ترتيب خنشلة خلال مرحلة الإعداد لانطلاقاة الثورة، لا سيما في مجال تجنيد الرجال وتنظيم وشراء الأسلحة، إذ أن هذا الصراع كان يزيد من غموض الوضع في تفكير الجماهير، وكان من أهم نتائج الصراع بين الكتليتين، إحباط خطط للحصول على أسلحة حربية من "نيميشا". واجهت محاولات للاتصال بالفرسان الصباحية - السباهيين - الجزائريين، الذين كانوا ينتمون في "خنشلة".

وكان المخطط يعتمد على اشتراك هؤلاء الفرسان في اليوم الأول لانطلاقاة الثورة يوم 1ي، والقيام بالعمل من داخل الثكنة العسكرية. وعلاوة على ذلك كله، فقد اضطر عدد من المجاهدين بـ بـ بـ انقسام الحزب الى كتليتين متصارعتين، الى الخروج من دائرة الظل، ومغادرة مواقع العمل السري، لتنظيم
«اللجنة الثورية للوحدة والعمل». وكان هؤلاء من المغمورين الذين لم تتردد أسماؤهم على ألسنة الجماهير. وقد حرصوا على تنظيم حركتهم الجديدة في إطار من السرية المطلقة. وضموا اليهم كل الأنصار المؤمنين بقضية «الصراع العسكري» سواء كان هؤلاء من العناصر القديمة في التنظيم السري، «المنظمة الخاصة أو الشرف العسكري» أو كانوا من المجاهدين المحايدين في الكتلتين المتصارعتين. وقرروا الانتقال إلى العمل العسكري في أقرب فرصة ممكنة. كما قرروا أن تتبع عملية تفجير الثورة نشر المجموعات المسلحة في كل الأقاليم لتنفيذ الأعمال الثورية. وفي يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١٩٥٤، كان «عباس لغزور» يتصل بالمجاهدين في «خنشلة»، واحدًا بعد واحد، ليطلعهم على تطورات الموقف. وذكر المجاهد سالم بوبكر، ما حدث له في ذلك اليوم بالكلمات التالية:

«دخلت على عباس لغزور، وكان أول ما أثار انتباهي هو عدم وجود صورة مصالي الحاج في المكان الذي كانت تتصدره. واشحذ عباس لغزور دهشتي فقال لي مبادئاً: لقد حظيتها، ودمرت صاحبها لأنه خان القضية، يجب علينا نسيان الحزب القديم الذي لم يشر غير الروتين. إن الجزائر لن تصل إلى استقلالها بتلك الأساليب الليبرالية والبرامج الإصلاحية، فكيف لنا خوض الصراع على جهتين؟... هل من طريق الشرعية - الأفرنسية - أم عن طريق لعبة البيانات الخطابية، أم عن طريق العمل السري للثورة؟... إنه أمر من المحال تحقيقه، يجب اللجوء إلى خيار وحيد للعمل. لقد أصبح الضعف

١٣٧
في حزيناً واضحاً كل الوضوح. وجاءت الأزمة الأخيرة لتمزقه
تمزقاً تاماً. يجب الخروج من أزمة الانقسام إلى العمل المباشر، ثم
كشف لي النقاب عن وجود مجموعة ثورية تعالج قضية البدء قريبًا
بالصراع المسلح في الجزائر. وفي نهاية المطاف قال لي: هنا نحن يآ
أخي العزيز سنبدأ بالعمل المباشر. وواجدك هو أن تكون في عدد
التنظيم الجديد الذي سيوجه ضرره إلى العدو. وسيفرض وحدة
شعب الجزائر من خلال شعار الاستقلال، وهو ما تعمل لتحقيقه
منذ سنوات. ثم طلب إلي: عباس لغورر، أن أقسم على القرآن
ال الكريم بإلا أخون الحزب، وأن أخدم أهدافه حتى آخر لحظة من
حياتي. وبعد ذلك طلب إلي شراء قميص متين وبنطال وسترة من
اللون الأحاسي، وزوج من الأحذية الطاطسية، ومصبغ بدوء، مع
الحصول على أكبر كمية ممكنة من أدوات وأدبية الاستعفاف، والمواد
الطبية والبقاء على اتصال دائم معه.

نظمت الهيئة الثورية للوحدة والعمل قيادة خنشلة، في
هناك شهر حزيران-يونيو-1954 وضمت هذه القيادة أربعة
أعضاء واجهم الإعداد للهجوم على مواقع الفرنسيين في مدينة
خنشلة، وألفت مسؤولية هذا الهجوم على عائق: (عباس
لغورر وغزالي بن عيسى وصلاح أوغيد وسلم بويكر). ومضت
الفترة بين أوائل تموز-يوليو-ويوم 31 تشرين الأول-أكتوبر في
عمل مستمر، وجهد متواصل لإجراء التدريب، وتطوير مخططات
الهجوم على الأهداف الهامة في المدينة. وشراء الأسلحة والذخائر
واللبسة العسكرية والتجهيزات الطبية والأجهزة اللاسلكية...
الراديوات...تنظيم وحدات الفدائيين...شبه العسكرية...انتقاء

١٣٨
عناصر المهاجرين من الموئل، والتدريب على استخدام المتفجرات، ووضع الصواعق المفجرة، والقاء المحاصيل النظرية عن قتال العصابات وأساليب الإغارات والكمائن، مع إعداد مراكز تجمع الثوار والملاذ، وتجهيزها بالمواد التموينية. وكانت الغارات هي المراكز المفضلة للاجتماعات، والتدريب على استخدام الأسلحة ورمي القنابل. حيث كان يتم استخدام الحجارة للتمرين نظراً لعدم توفر كمية من قنابل التمرير أو القنابل الحقيقية. وتم اختيار (الربع الدافي) على بعد خمسة كيلومترات من (خنشلة) في شهر أيلول- سبتمبر 1954 للاجتماع والتدريب، عوضاً عن (عين سيلين) وذلك بسبب وجود غابة كثيفة يغطيها السياج، وتكثر فيها الوهاب والوديان، فكانت بميزاتها الطبيعية من أفضل الأمكنة للاجتماعات والتدريب وإجراء الرمي.

وفي أعقاب التمرين الأول، قام «عباس لغورو» بتقديم الثوار المجاهدين إلى «مصطفى بن بولعيد وشير شيحياني» اللذين قدمتا للفتش في منطقة «خنشلة». ووقف بن بولعيد ليقول: «ستتحمل الجزائر السلاح قريباً خوض الصراع ضد فرنسا. من أجل انتزاع حقوقها، والتحرر من رببة الاستعمار». ثم طلب إلى الثوار الحصول على أكبر كمية ممكنة من الأسلحة، لأن الساعة قد اقتربت، كما أصدر أوامره «باتخاذ أقصى أساليب الحذر، ومراقبة قواعد الأمن والسرعة ضد عناصر الشرطة والمخبرين ورجال الإدارة الاستعمارية، والامتناع عن أي اتصال ما بين المجموعات بصورة
للمكشوفة أو بالطرائق العادية، واختيار العناصر الأكفاء الشجعان والعناية بهم، ثم تولى الحديث بعد ذلك "بشر شيحاني" فشرح الوقائع التي هميت على المواقف السياسية للجزائر منذ احتلاها في سنة 1830، إلى أن قال: "لم تحقق الوسائل السياسية العادية أي نتيجة إيجابية، وعلى الشعب الجزائري، وبعد أن استنزف كل إمكانات الصراع السياسي أن ينتقل الى العمل المباشر، وذلك بِحماية المراكز العسكرية، ومراكز الشرطة، وكل المنشآت العسكرية والأدارية التي تتوفر فيها الأسلحة".

لم يجد "بشر شيحاني" في حديثه الى المجاهدين موعد البدء بالأعمال القتالية، ولم يجد هذه الأعمال أهدافها، أو تفاصيل تنفيذها، غير أن ما كان واضحًا هو أنه يجب الانتهاء خلال أيام قليلة من وضع مخطط تفصيلي للهجوم على المدينة. وانصرفت الهيئة الثورية في "خشلطة" لوضع مخطط الهجوم وإعداد العناصر لتنفيذها، وجرى نقاش طويل بهذا الشأن، انتهى بالاتفاق على ما يلي:

1- الإغارة على مركز الشرطة - كوميسير البوليس.
2- مواجهة المجمع المشترك - كومون ميكست.
3- الإغارة على الثكنة العسكرية.
4- الإغارة على مركز الدرك - الجنردة.
5- تفجير المحولات الكهربائية التي تغذي المدينة بالطاقة، وتدميرها.
6- قطع الخطوط الهاتفية التي تصل "خشلطة" بـ "عين البضاء" و "باتنة" لعزل المدينة عن كل اتصال خارجي". وبعد ذلك تم وضع لائحة تتضمن أسماء عناصر المنفذين الذين بلغ

140
عددهم 40 - رجلًا (1) وصدرت بعد ذلك تعليمات صارمة بشأن طرائق التنفيذ، تضمنت ما يلي: يجب العمل منذ اليوم الأول للثورة على احترام الأطفال والنساء والشيخوخ من المدنين، يجب أن لا يكون عملنا ضرباً من اليأس أو تعبيراً عنه، بل يجب أن يكون عملًا واعيًا وعقلانيًا ومنظمًا. فقد تؤدي أقل خطوة خاطئة إلى تدمير البنية الثورية الذي تم إنجازه بعد صبر طويل، وجهود حربية وتضحيات كبيرة» وقد تم الاتفاق - عند التخطيط - على إعطاء العمل بالدرجة الأولى شكل تظاهرات نسائية واسعة النطاق - قدر المستطاع - بهدف إثارة انتباه الجماهير والرأي العام الداخلي والدولي إلى قضية الجزائر، والتي هي قبل كل شيء قضية سياسية.

عقد اجتماع نهائي في الجزائر - العاصمة - يومي 23 و24 تشرين الأول - أكتوبر - 1954، حدد فيه المؤتمر و بصورة نائية موعد انطلاقة الثورة "يوم ي"، ليكون في اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر - وقسمت البلاد إلى خمس مناطق عسكرية للعمليات، وهي: وهران والجزائر والقبائل وشمال قسنطينة والأوراس. وبيقي أمر تنظيم المنطقة السادسة (منطقة الصحراء) مؤجلاً إلى ما بعد انطلاقة الثورة. غير أنه تم اختيار العضوين

(1) قتل منهم عند التنفيذ 23 مجاهداً. وبيقي 17 على قيد الحياة، وتذكر الأشارة إلى أن قيادة الثورة في خنشلة، استمعت بعض المناعر من غير رجالهم، ولكن من المعاهدين مع الثورة. مثل "السائق مهاوي الغاني»، الذي تمكنها بنكل وسائط الاتصال والأتمادات بسياسته - الأجرة - فين اعتقاله، ولم تفرج عنه فرضاً إلا عندما تم استقلال البلاد، حيث خرج وهو يعاني من الشلل، نتيجة ما تعرض له من التعذيب في سجنه، علاوة على إصابته بأمراض مستعصية. فلم يعج نعمة الاستقلال طويلة بعد أن تم تحريره، وقضى نحب.
اللذين سبق عهدها عباء مسؤولية قيادة المنطقة وتنظيمها. وإدارة الأعمال القاتلية فيها، وهذا المسؤولان هما: عبد القادر المهدي الذي أحجم في اللحظة الأخيرة عن الاشتراك في الثورة. و"الرقيب سليمان" الذي اخترى من دائرة العمل، منذ الأيام الأولى لاندلاع فتير الثورة(1) وعند ذلك اتخذ "مصطفى بولعيد" قراره بضم منطقة الصحراء الواسعة إلى منطقة الأوراس. وذلك ريثما يتم تنظيمها من جديد، وهو التنظيم الذي لم يظهر إلى الوجود إلا في العام 1956، بفضل الجهود المستمرة التي بذلها سي أحمد بن عبد الرزاق المعروف باسم "الكولونييل هاوبس".

وصل "عباس لغيرور" إليه "بانيه" أو "بانيه ، يوم 29 شرين الأول - أكتوبر - للاشتراك في مؤتمر تقرر عقده برئاسة "مصطفى بن بولعيد وبشير شيحاني". وقد تم عقد هذا المؤتمر في منزل "سالم بو بكر" ظاراً لكونه منعزلًا و بعيدًا عن المراقبة - وذلك في الساعة 21:00 - وبعد افتتاح الجلسة، تم قراءة نص كتبها باللغة

(1) قامت قيادة الثورة بالبحث عن هذين العنصرين اللذين انقطعت أخبارهما بصورة مباغتة، وعلى الرغم من التحريرات الواسعة التي قام بها بن بولعيد وشيحاني - والتي استمرت طوال الشهرين الأخيرين من العام 1954، من أجل إعادة الاتصال بها، وبعض الثورة في منطقة الصحراء، إلا أن الجهود فشلت في العثور على أي أثر لها. وبيني بعد ذلك أن "عبد الغادر المهدي" قد بقي منعزلًا في عسكره. أما "الرقيب سليمان" فقد التحق بفرنسا، ليكون بعد ذلك سببًا في اعتقال "رابح بيطاط" في الجزائر، ونظراً لغياب هذين العنصرين، وبعد انتظار طويل، نتج عن غياب المسؤولين والناشرين في "منطقة الصحراء" تم تكليف زمرة من الوطنيين للهجوم على الوادي الصحراوي في شهر كانون الأول - ديسمبر - 1954. وقد توجت هذه الزمرة إلى الصحراء - من قوة الجنوب - بقيادة: الأخضر حما وبروك عماره ."

142
الفرنسية، وكان قد تم إعدادها من قبل، وكان النص الأول موجهًا باسم "جبهة التحرير الوطني" إلى الشعب الجزائري. وهو يحدد بوضوح الأهداف السياسية للثورة؛ أما النص الثاني فكان موجهًا باسم "جيش التحرير الوطني" وقد حملت الورقتان علم الجزائر: الأبيض والأحمر، والهلل واللبنية في الوسط باللون الأحمر. وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها الإعلان عن وجود الحركة الثورية.

بـ الله أكبر - خالد - عقبة

... مجلس المؤتمرون بمست، وهم يستمعون إلى بيانات الثورة - تتم عليهم، ولم ينسى «لغور» بينت شفاه، وإنما راح غارقاً في تفكير عميق، في حين كانت دموج. ووغلد «نساب» على وجنتيه، أما «بن عباس» فقد كان يردد بلا انقطاع: "الله أكبر! لقد أقبل أخيراً فجر اليوم العظيم. وخرج «لغور» عن صمته ليقول بلجة هادئة: لقد حدد يوم (ي) بصورة نهائية، ليكون ليل 31 تشرين الأول - أكتوبر - المصادف ليلة يوم الأحد، وليبدأ العمل في الساعة الواحدة من صباح الاثنين الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر - وسيقوم الثوار بجموعهم في وقت واحد، وفي كل أنحاء الجزائر. وستكون كلمة السر للعمليات في هذه الليلة هي (خالد) أما كلمة الإجابة فهي (عقبة). وطلب (لغور) من المؤتمرين الاحتفاظ بموعد يوم الهجوم وساعته. وقدم إعطائه للمجاهدين المتقدمين قبل يوم الأحد. ثم بدأ القادة المؤتمرون ببحث الاستعدادات الأخيرة قبل البدء بالهجوم.

143
تم بعد ذلك توزيع الأعمال على القادة، فكانت واجباتهم كالالتالي:

1 - (لغور) وواجبه تنسيق التعاون بين مختلف زمر الهجوم والاتصال مع مصطفى بن يعال، لنقل الأسلحة وتلقي التعليمات الأخيرة.

2 - (أوغاد) وواجبه جمع الزمر في عين سيلين، وتنظيمها مساء السبت 30/10/1954 وحتى 31/10/1954 (وتقع عين سيلين بدورها على بعد خمسة كيلومترات من خنشلة).

3 - (بن عباس) وواجب الإشراف العام، والاتصال بالمجاهدين بصورة إفرادية لإعلامهم بالموقف وتكليفهم وواجباتهم، حيث كان لزاماً على كل واحد من هؤلاء التوجه بوسائله الخاصة إلى المكان المحدد للاجتماع.

4 - (سليم بو بكر) وواجبه نقل بقية الأسلحة التي ستستخدمن في الهجوم، والتي كانت مخبأة في منزله، وتضم بعض قطع الأسلحة والذخائر، وقنابل كوكيل مولوتوف وقنابل حارقة، ومواد طبية وألمسة وأطعمة(1).

(1) تم توزيع الزمر على الأهداف بإشراف هؤلاء المسؤولين الأربعة عن القيادة، نجاح التنظيم للعمل كالالتالي:

1 - زمرة الإغارة على مركز الشرطة: وهي برئاسة وغزالي بن عباس، ومحاولة صلاح أوغاد، ومعهما عبد الكريم بن كوت وعثمان لغور والشامي لرغات.

وراشد خميني، وحمودي غزالي.

2 - زمرة الهجوم على المجمع المشترك: برئاسة وعباس لغور، وتنضم محمد شامي، وعبد القادر بورماة، وفهد بورماة، وعبد السؤور، وإبراهيم بعطل، وعثمان ليجوش.
انصرفت كل زمرة من الزمر، بعد التوزيع وتحديد الأهداف، لمعاودة دراسة مهمتها مرات متتالية مع إجراء استطلاع دقيق للأهداف، ومحاور الاقتراب منها والوصول إليها. وكان مركز الشرطة هو أفضل مركز تمت دراسته، وكذلك المجمع المشترك - كومون ميكست - إذ كانت محاور الوصول إليها سهلة بالنسبة للمنتفذين الذين أتىحت لهم فرصة استطلاع الأهداف مرات عديدة قبل بدء الهجوم. وقد شارك في غغور، في كاففة الاستعدادات. ونسق التعاون بين كافة الزمر بصورة دقيقة. ثم طلب ال«سليم بو بكر»، عدم الاشتراك في الهجوم على «خنشلة» تنفيذاً لأوامر مصطفى بن بو العيد، التي نصت على إخفائه من مهمة قيادة زمرة من الفدائين كان من المقرر لها الهجوم على المجمع المشترك - كومون ميكست - حيث يقيم المزارع الأوروبي الوحيد في منطقة الأوراس. وأمام هذا التحدي، تولى لغغور قيادة زمرة «سليم بو بكر» للاغارة على المجمع المشترك. وتم تعيين «عمور سعدي» ليحل محل لغغور في قيادة الهجوم على المعسكر. ثم حددت مهمة «سليم بو بكر» لتكون

3 - زمرة الإمارة على مركز الدرك: برئاسة علي خشورور، وتضم علي غزياني، وربيع الأغور، ومحمد شاكير، وعمر حام، وكامل غليوفي، وعلي حفنايري.
4 - زمرة الهجوم على النكتة العسكرية: برئاسة عمور سعيد، وتضم مسعد ناصر صوفي، عبد الحميد زيرولي، والحسن مارير، وأدجال، وفرحات عريف، وحسن عريف، وعمير زايد، وسلامان زايد، ومحمد بن زيدان، وعبد الرحمن نواصرية، ومحمد بوهرلال، وصلاح حفنايري، وأحمد زايد.
5 - زمرة قطع الأسلاك الهانتية، وتدمير مركز التحويل الكهربائي، وتتكون من: إبراهيم عثمان الملقب بالتيجانى، بعاونة كيلاني لارغات.
على النحو التالي: «البقاء في القاعدة الخلفية مع اثنين من الأخوة المجاهدين. فيهم اتخاذ الإجراءات الضرورية لمنع تنفيذ العمل في حال تعرض جميع الذين يقومون بهجوم على "خششة" للقتل. وعليه الاحتفاظ بكافة الوثائق والوسائل المادية من أجل إكمال المهمة. وبعد ذلك، يتوجه من بقي على قيد الحياة إلى دوار يابوس، وهو الذي كان يحمل اسم "هريج". حيث تلتقي كافة زمرة المجاهدين العاملين في خشنالة، وتكون هذه النقطة أول نقطة تجمع - ازدلاق - قبل الانسحاب للقواعد الخلفية».

كان من المقرر دعم زمرة التنفيذ في الهجوم على خشنالة، بعشرين رجلا مسلحاً من دوار يابوس، ومن كان بعضهم قد انضم لتنظيم الثوار منذ وقت طويل، وكان يجب أن يتولى قيادة هؤلاء "ميسعود معاشي" وهو ثائر قديم ومن رفاق "غرين بلقاسم"، بالإضافة إلى "موسى الرضى". الذي لم يلتزم ببداً بالثورة.. وهذا السبب نقص عدد المتفشدين من ستين رجلاً إلى أربعين رجلاً. ومقابل ذلك، تلقي المجاهدون في خشنالة بعض الدعم في الأسبوعين الأخيرين الذين سبق انطلاق الثورة، وذلك بانضمام بعض المقاتلين إليهم (الزمرة الثانية من كتيبة المدفعية الرابعة). غير أن ذلك حذر الإفرنسيين الذين اتخذوا إجراءات أمن جديدة: مثل إقامة الحواجز من قبل رجال الذكر - الجنود - وتفتيش العربات والمركبات بدقه، والتأكد من هوية المسافرين على الطرق.

أصدرت قيادة الثورة تعليماتها الأخيرة، وطلبت إلى "لغور" الاتصال مع بن بولعيد، في الأوراس، للحصول على أسلحة...
إضافةً، إذ كانت الأسلحة المتوافرة للمهاجرين في خنشلة غير كافية للقيام بهجوم واسع النطاق. وفي يوم الأحد، 31 تشرين الأول - أكتوبر - كان على سليم بو بكر، نقل الأسلحة والذخائر المخزونة في منزله، وإخراجهما إلى ظاهر المدينة. وتصادف في هذا اليوم حدوث مباراة بكرة القدم بين فريق من تسنتينية، وفريق محلي من خنشلة، وكانت السلطات الإفرنجية على حذر، فدعمت جهاز الشرطة في الملعب. غير أن سليم بو بكر، وجد في ذلك فرصة مناسبة لتنفيذ المهمة، والوصول بالأسلحة إلى النبع الدافئ، وهو المكان المحدد للالتفاء مع المنفذين المجاهدين (على بعد 7 كيلو مترات من خنشلة) وأمكن تنفيذ هذه المهمة بنجاح، وبعد ذلك، تركت مراقبة الثوار على ما كان يحدث في المدينة.

لقد انتهت المباراة الكبرى بكرة القدم، والتي أثارت في المدينة صخبًا كبيرًا. وانصرف الناس بعدها إلى المقاهي - كعادتهم - وكان الوضع في الساعة 21.30 طبيعيًا جدًا. لقد سارت الأمور - حتى الآن - على خير ما يرام. وها هم رجال الشرطة والدرك من الأفرنجيين يتجولون كعادتهم، وقد ارتدت المدينة ثياب العيد - عيد جميع القديسين - وليس هناك من يشعر بوجود هؤلاء الذين يراقبون بيفظة كل ما يجري في المدينة. ثم غادرت زمرة المراقبين خنشلة متجهة إلى ما وراء الخطيقة العامة، حيث كان بن عباس، يحفر الأرض ليدين فيها أنبوباً معدنياً يحمل لغباً متفجراً - حشوة مستطيلة - كان قد أحضره معه لاستخدامه في تدمير الباب المعدني للمحول الكهربائي. ووصلت زمرة المراقبين بعد ذلك مباشرة إلى الغابة الواقعة على بعد خمسة كيلو مترات من المدينة.
وهنا أوقفهم رجل مسلح كان يرتدي ثيابه العسكرية، وصرخ فيهم (خالد) وأجابه رئيس منظمة المراقبة (عقبة). لقد كانت كلمة (خالد - عقبة) تتردد الآن في كل انحاء الجزائر. فتحمل عمل السحر في نفوس المجاهدين وتضمن تعارف بعضهم على بعض.

وصلت زمرة المراقبين إلى مكان الاجتماع، في الوقت المحدد بدقة، وشاركت المتذدين استعداداتهم حيث كان بعضهم على وشك ارتداء ثيابه العسكرية، في حين كان آخرون يختارون أسلحتهم للحرب الأخيرة. وكانوا جميعًا يتهونون فخراً بما يفعلون.

وبعد ذلك تجمع المتذدون كلهم، ومعهم أسلحتهم ووسائلهم القتالية. ووصل "لغور" في الساعة 22:40 وهو يحمل سلاحه، ويرتدي ثيابه الميدانية. وانتظر الجميع وصول العشرين - أوراسي - الذين كان يجب التحاقهم، وانطلق المجاهدون للبحث عنهم في الغابة كلها، مستخدمين في بحثهم الشارات الضوئية يطلقونها من مصابيحهم اليدوية، غير أن جهود البحث ضاعتSadly, ولم يظهر أي أثر للأوراسيين. ووقف "لغور" عندها ليقول:

"Etheri المجاهدين الأعزاء!

ما نحن قد أدركتنا يوم الثورة العظيم الذي يجب أن يقود الجزائر إلى الاستقلال، إن علينا القيام بالهجوم على الأهداف كلها، وذلك على الرغم من عدم وصول الأسلحة التي كان من المفروض لها أن تصلنا مع زمرة العشرين رجلاً من دوار يابوس.

148
وعلى كل واحد منا بذل قصارى جهده لضمان النجاح على أفضل صورة ممكنة. إنني أعرف بأننا سنجابه العدو وأهدينا فارقة عملياً. وليس لدينا إلا الإيمان الذي يعم قلوبنا. فين أن ما نعتمد عليه في هذه الليلة التاريخية هو إشغال الفرنج المفجر للثورة. وإنني على ثقة تامة بأن الشعب الجزائري بكامله سيتبع مسيرتنا على هذا الдорب. ويجعل كل فرد منا في شخصه الآن، وفي هذه اللحظة بالذات قسماً كبيراً من المسؤولية عن نجاح الهجوم ضد الأهداف المحددة. وجمع الأسلحة المتوازرة لدى العدو. إنني أثق بكم وشجاعتكم وتصميمكم. انطلقوا، واضربوا العدو بقوة، ودون أدنى رحمة أو شفقة. وعودوا ظلقاءً. ذلك لأن الله مع المجاهدين، ومع القضية العادلة. الله أكبر! "

ما إن فرغ «لغور» من إلقائه كلمته المثيرة والصادقة، حتى أصدر أمره إلى الرمزة المكلفة بقطع الاتصالات الهاتفية وعزل المدينة بالتوجه إلى خنشلة». ثم تبعتها الزمرة المكلفة بالصاق بيانيه جبهة التحرير وجيشه التحرير على كل منازل خنشلة. وتباع انطلاق الزمر إلى أهدافها، ولم تبق إلا زمرة من ثلاثة رجال واجبهما حماية قاعدة الانطلاق. ووصلت إلى أسماء أفراد هذه الزمرة في الساعة (11) من صباح الفاتح من تشرين الثاني - نوفمبر، أصوات الانفجارات الأولى. لقد انطلقت شرارة الثورة. وعندما ذلك، كان أفراد هذه الزمرة يعملون على نقل ما لديهم من الاعتداء والتجهيزات، حتى إذا ما أزفت الساعة الثانية صباحاً، بدأ المجاهدون المغاوير بالعودة إلى قاعدة تجمعهم، واحداً بعد
الآخر، إلى أن وصل الجميع، وبينهم اثنان أصيبا بجرح غير خطرة. وأثار النجاح الذي حققه زمر التنفيذ موجة من الفرح الغامر الذي شمل الجميع. ولكن "لغور" تخلف عن اللحاق بنقطة التجمع، وأخذت حماسة المجاهدين بالفتر، فقرروا الانتقال من مركزهم. وفي النهاية، وصل "لغور" مع الخيوط الأولى للفجر، وابتسامة السعادة تغمر وجهه. كانت فرحة الجميع لا توصف، وفخرهم لاشتراكم بتخفير الثورة لا يضاهيه فخر ولا ينافسه زهو واعتزاز. وانطلق الجميع بعد ذلك وهم يخربون غابات الأوراس، للبدء بمرحلة جديدة من التنظيم والعمل.

صادف المجاهدون، أول ما صادفوه في طريقهم، رجلًا يحتطب في الغابة، وهو يغني، واقرب به الرجل المقاتلون، وبادروه بقوله: (سلام عليكم) وأجابهم (وعليكم السلام). وخطبه أحد المجاهدين بقوله: (أين يزعجك الإفرنسيون بعد اليوم؟) وسألهم الخطاب ببساطة: (ولكن من أنت؟) وجاءته الإجابة:

(نحن محررو البلاد). فقال لهم الخطاب مستغربًا: (إني لا أفهم شيئًا، وماذا تعني كلمة محرري البلاد؟ إنكم جزائرون، وزيادة على ذلك فأنتم تحملون السلاح! وجاهاه مرة أخرى الإجابة: (نحن مجاهدون. نقاتل حتى يصبح بإمكانك العيش حياة أفضل) وعاد الخطاب للتساؤل: (كيف تكون الحياة الأفضل؟) عند ذلك راح أحد المجاهدين يشرح للحطلب الفلاح... وآلاف الفلاحين من بعد ذلك... الأسباب التي دفعت المجاهدين لحمل السلاح، وأهدافهم من ذلك، وما يضمحون لتحقيقه. وأشار وجه الفلاح بسعادة غامرة، قدعا المجاهدين.}

150
لمشاركته طعامه البسيط.

تقلت الهوية الاستعمارية لطمة مذهلة لم تكن تتوقعها، سواء في قوة هذه اللطمة أو أصاغها، وما أن أشرقت شمس صبيحة انفجار الثورة، حتى انطلق تحت السلطات الاستعمارية للانتقام، فاعتقلت مئات وآلاف المسلمين الجزائريين، وقذفت في ظلمات المعتقلات وغياب السجون. وكان من بين المعتقلين بعض أقارب وأهل الذين قاموا بهجوم على "خششة" وتم إطلاق سراح بعض المعتقلين بعد تعذيبهم واستجوابهم. في حين بقي الآخرون وراء قضبان المعتقلات. وفرضت الإقامة الإجبارية في مسارات الاعتقال على عدد كبير من المواطنين. ووقعت نساء بعض المجاهدين في قبضة السلطات الاستعمارية، فقذفت بهن في السجون، حيث تعرضن لسوء المعاملة والتعذيب لمددة طويلة. وقد يكون من المناسب هنا استعراض مسيرة الأغارات في خششة، وما تم حدوثه خلال التنفيذ.

1- الإغارة على المحول الكهربائي وشبكة الاتصال الهاتفي:

قام بتنفيذ المهمة "إبراهيم عثمان - التيجاني، ومعه "الأرقم كيلاني". وبدأت العملية عندما قطع إبراهيم عثمان الأسلاك الهاتفية التي تصل خششة بكل من عين البيضاء وبطنة، وكانت هناك زمرة تقوم بإشغال الذكر - الجندرة - حماية المندسين، واستخدمت حشوة مستطيلة بعد ذلك لتدمر الباب المعدني الذي يحمي مدخل "المحول الكهربائي". كما استخدم مقص معدل للتعامل مع القاطع الكهربائي الرئيسي. مما ساعد على قطع التيار الكهربائي عن المدينة كلها، فباتت تسبيع في ظلام دامس. وتم بعدئذ وضع الشحنات المتفجرة والقنابل، وأشعل الفئل البطيء.
وتطابر البناء بكامله في الفضاء. وكان إطفاء النار في المدينة هو شارة بدء التنفيذ بالنسبة لزمر الهجمات الأخرى. وكانت النتيجة تدمير المحول الكهربائي وإلحاق أضرار كبيرة بالمشآت والتجهيزات.

2. الإغارة على مركز الدرك - الجندلية - كان مركز الدرك قد تلقى إنذاراً من قيادته باحتمال قيام بعض المسلحين بالهجوم على المركز الذي عمل على استنفار عناصره. وهكذا فقد بدأت العملية بتبادل إطلاق النار بين المجاهدين ورجال الدرك الذين أطلقوا كلاهم البوليسية. غير أنهم تم تنفيذ المهمة، وانسحب المجاهدون ولا يصب أحد منهم بأذى.

3. الإغارة على مركز الشرطة - البوليس - أفاد «بن عباس» من الظلمة الحالية، فتم سحل الحاجز الشبكي المحيط بالمركز. وأخذت بقية عناصر الإغارة مواقعها المحددة لها داخل المركز، واقتحم رئيس الزمرة بن عباس، باب مكتب الشرطة حيث كان يردق الشرطي المناوب. وصرخ بن عباس بالشرطي : قف، وسلم سلاحك. فقال الشرطي : ولكن ما الأمر وماذا يحدث وأجابه : بن عباس، يقوله : نحن جند جيش التحرير الوطني، نبحث عن السلاح، أين هم بقية رجال المركز وأجاب الشرطي المناوب : إنهم يقومون بأعمال الدورية في المدينة. وأشار الشرطي إلى المجاهدين نحو مكان البدنات التي كانت مرتبطة بعضها بعض بواسطة سلسلة معدنية غليظة تنتهي بقفل. وبعد أن تم قطع السلسلة تبين أن البواريد هي من الأنواع القديمة والتي لا تصلح للقتال. فقذف بها المجاهدون في ساحة
المركز. وأثناء ذلك كان هنون عباس، يتابع مع الشرطي المناوب، فقال له: إن جيش التحرير الوطني قد بدأ منذ هذه اللحظة بخوض صراع مسلح هدنه تحرير البلاد. وليست العمليات هنا معزولة أو مستقلة عن العمليات الأخرى. فالجزائر كلها تشهد في هذه اللحظة عمليات مماثلة. ثم أصدر هنون عباس أمره إلى رجاله بوضع الشرطي في زنزانة السجن.

ومضت عشر دقائق قبل أن يظهر رجلان من الشرطة ما أن دخلوا المركز حتى قال أحدهما: ماذا يجري؟ لقد ترددت أصوات إطلاق الرصاص في المدينة التي أصبحت مظلمة بسبب انقطاع التيار، فماذا يحدث؟ وعندها وجه هنون عباس ضوء مصابيح اليدوي، فهو عيون الشرطيان، وقال لها بلهجته الحازمة: تقدما وارفعا أيديكما عاليَاً. لا تتحركا أبداً، وسليما سلاحتكما! وأصيب الشرطيان بدهول المباغتة، غير أنها ترددوا لحظة قصيرة في اطاعة الأمر. وعندها قفز ووغد فصرع الأول بضربة من عقب بندقيته، وطعن الثاني بضربة مديئة.

لقد كان صلاح ووغد رياضياً هاوياً، مصارعاً، وحبًا لقراءة الروايات الرومانسية، والكتب البوليسية، مغامراً ومندفعاً حتى التهور عندما يكون الأمر متعلقاً بمقاومة الأفرعسيين. لقد نشأ بتيتياً، واحترم منذ نعومة أظافره مسؤولية إطعام عائلته وتأميم ممتطلباتها الحياتية. غير أن ذلك لم يمنعه من متابعة دراسته، فكان يعمل في الليل لتشغيل أجهزة عرض الأفلام في دور العصور المتحركة- السينما- ويتبع تعلمه في النهار، وكان يقوم بدهوة إخوانه ورفاقه إلى السينما في كل مناسبة يتم فيها عرض فيلم ثوري.
مثل: (فيزايباتا) أو (بانكوليرتا) والتي تمثل وقائعها تلك الحركات الثورية التي عرفتها بلدان أمريكا الجنوبية في القرن التاسع عشر \(^1\)

ألفي الثوار بالشرطيين في الزنزاعة، إلى جانب زميلتها الذي سبقه، ووصل شرطي رابع، فتمت السيطرة عليه بسرعة، وجد من سلاحه، ليلحق بدوره أيضاً بين سققوه إلى الزنزاعة.

وفي هذه اللحظة، ران جرس الهاتف في مكتب مدير المركز، إذن فالشبكة الداخلية للهاتف لا زالت عاملة ولم تقطع اتصالاتها بعد. ورفع (بن عباس) السماعة، والنطق الصوت الذي حمل له الكلمات التالية: اللواء! هذا مدير الشرطة، نحن مطلقون، وتعرض لهجوم رجال مسلحين، ابتدأنا ما نستطيعونه لإنقاذنا وأخبر فوراً السيد المشترك - الكوميسير - بالوضع. وأجابه (بن عباس) بقوله: هنا أيضاً، نحن الذين نمسك بالمصلحة. وسأل متحدث الشرطة: ولكن من أنتم؟ وأجابه بن عباس: نحن جند الجيش التحرير الوطني، جنودنا تنتزع حقوقنا بقوة السلاح.

واجتاحت (بن عباس) موجهة من الغضب، فقد ذهبت الهاتف ودمره. وحمل أفراد الزمرة المسدسات الأربعة التي انزوعها من رجال الشرطة. وحملوا أحد المجاهدين بسبب إصابة بجرح في

---

\(^{1}\) كلف صلاح أوفاد برفاقته بن عباس بعد ذلك للالتحاق بأحد مراكز تدريب المقاتلين الجزائريين التي أقيمت في البلاد العربية. لبعدها بعدها إلى عتبة مهمة مراكز رفاقته زورق كان من المقرر له أن ينقلها إلى الشرق (ومن المحتمل إلى جزيرة أثوس اليونانية). ولكن السلطات الأوروبية استولت على زورق الأسلحة، وصارت ما يحمله، في تشرين الأول - أكتوبر - 1906. وكان الزورق يحمل عند الاستيلاء عليه في (وهرات) ذخائر وأسلحة وأعدت مرحلة إلى جيش التحرير الوطني الجزائري.
فخذها. وانسحبوا بسرعة من مركز الشرطة، والتحقوا بمركز التجمع.

٤ - الإعارة على المجمع المشترك. كومون ميكت.. كانت الظلمة حاكيلة السود عندما فقز (شامي) من فوق بوابة المجمع المشترك، وتبعته زمرة المجاهدين، إلى داخل المناطق السكنية. وتكفل (لغور) بالفرسان الذين كانا يحرسان البرج، وأصدر إليها الأمر عبر الباب بقوله: اقتربوا! إننا لن نلحق بكما ضرراً أو أذى. ألقوا أسلحتكم من النافذة وسلموا إليها. إننا مسلمون جزائريون نريد تحرير البلاد من الاستعمار الإفريقي. ولكن في هذه اللحظة، ظهر مدير المجمع على الشرفة وأخذ في الصراخ: يا عسس! يا عسس! دافعوا عنني، إنهم يريدون قتلي. من هؤلاء الرجال الذين يقفون في الساحة؟ وردًا على الصراخ، أخذت مجموعة من المجاهدين في إنشاد نشيد وطني بصوت مرتفع. وتكبر بلا انقطاع: الجهاد- الله أكبر! واختلطت مشاعر الفزع بحمي الجنون لدى المدير عند سماعه ذلك، على ما يظهر، فعاد للصراخ تأليباً نجله الخرسين الفارس: يا عسس! يا عسس! دافعوا عنني، إنهم يريدون قتلي وقتل عائلتي. ومضى المدير في إطلاق نار مسدس رشاش كان يحمله، على ما يراه، من ظلال المجاهدين. وعندما تكبر طله- بالنجدة- أجابه الفارسان: لا نستطيع أن نفعل شيئاً، بعد أن سدت المناذف علينا ونحن في داخل المحرس. فرد عليهم المدير بقوله وهو يتابع الرمي- يا عسس، ارموهم بالنيران، لا تتركوه ينفذون ما يريدون. وعندها حاول الفارسان تلقيم سلاحهما وهم داخل
المحرس، وما أن سمع (لغور) صوت المغلاق في الداخل، حتى تدخل، فأغرقها بالنيران التي أطلقها عليها عبر النافذة، وسقط أحدهما مصابًا بجراح خطرة. وكان المجاهدون أثناء ذلك يشعلون النار في المكتاب، وهم يردون شعاراتهم دومًا توقف: الجهاد - الله أكبر! واستمر تبادل إطلاق النار مع المدير لمدة عشرين دقيقة، أوقفت زمرة الاغارة بعدها الاشتباك، وانسحب أفرادها إلى الغابة المجاورة.

5- الهجوم على الثكنة العسكرية: تقرب المجاهدون في ظلمة الليل، ووصلوا بدون عنا إلى حارس الثكنة، وقتلوه. واحتل أحد المجاهدين مكانه. ومضت فترة قصيرة بعدها وأخذت الحشوات المتفرجة بالانفجار على امتداد الجدار المحيط بالثكنة العسكرية. وانهمرت القنابل، واشتعلت النار بالاساطيل نتيجة استخدام القنابل الخارقة، وعندما وصلت النيران إلى الخيول، أخذت هذه في الصهيل المذعور وهي تمزق صمت الليل. وهب الجنود الإفريقيون من مهاجمهم مذعورين. وتوجه اللواء (كانوا) قائد الثكنة إلى المحرس، فوجد الخفيف مقتولاً. ومضت فترة الذهول التي أعقبت المباغة، وأخذ الجند بالتجمع في ساحة الثكنة. وبدأوا بطلق النار على رشاشاتهم على المجاهدين الذين كانوا يعتلون بجدران أبنية الثكنة، وأعقب ذلك فترة قصيرة من الهدوء والتهديد. ثم انطلق الجنود الإفريقيون في تحركهم وسط اضطراب ظاهر عبرت عنه الأوامر المتناقضة والتعليمات المضاربة التي كانت تصدر من كل مكان في الثكنة.

وكان المجاهدون يستمعون صراخ أعدائهم: «أشعلا النور! النور مطفأً، لقد دمروه! إدفعوا الدافع الرشاشة والمصفحات نحو...»
الأمام ! انتبهوا واخذوا، إنهم مسللون ! فليكن كل فرد في مكانه !، وفي هذه اللحظة، ظهر الملازم الأول، جيراردارنو، قائد فصيلة الصبايعه - السباهين - الجزائرين في خنشلة. ولم يكن من عادة جيرار، النوم في الثكنة، إذ كان يقيم مع فرسانه في بناء مجاور - مقابل - ويظهر أنه أراد الالتحاق بمركز فصيلته، فتوجه إلى باب الثكنة الذي كان يحتله المجاهدون. وعندما وصله، قال: انتبهوا، لا تطلقوا النار، أنا قائد الملازم جيرار، ماذا يحدث هنا حتى تطلقوا النار. ولم يرد عليه أحد. فتقدم حذراً حتى عاجلته رصاصة أطلقتها عليه أحد المجاهدين من مسدسه فارداً قتيلًا على الفور. وانسحب المجاهدون بعد أن نفذاهم مهمتهم بنجاح رائع، وبدون أن يصاب أحد منهم بأذى.

ج - هيب الثورة في أريس (1)

بدأ العمل السياسي والعسكري للثورة في أريس، طوال الفترة من سنة 1951 وحتى سنة 1954. ففي سنة 1951، وفي أعقاب الاضطرابات التي سببها احتلال مكاتب الانتخابات - الاقتراع - وتدوير صناديق الانتخابات، وقتل كان في خدمة الإدارة الفرنسية. قامت الإدارة المشتركة للمجمع في (أريس) بعملية قمع واسعة في (دوار كامل). وتمركز قوة من الحرس المتحرك

RECITS DE FEU (S.N.E.D.) MOHAMED CHAMRI * P.P. 30*36 (1) 

107
مدفوعة بخمسة وستين رجلاً من الجزائريين (القوم) (١) في مشتي تيجين. وبدأت من هناك عملياتها القمعية. وكان ذلك بداية الهيجان. فقد كان المواطنون جميعهم يعارضون إقامة هذه القوة بينهم. وانضم عدد كبير من الأفراد إلى قوات المقاومة السرية الماكي وأصبحوا في تعريف السلطة الأوروبية (خارجين على القانون).

لقد كانت فترة مناسبة لعمل أعضاء التنظيم السري الذين كانوا قد أفرطوا من الاعتقال في كل مدن الجزائر. وأخذوا في العمل في وسط الفلاحين، وشرعوا في تنظيم الخلايا المستقلة. وكان أفراد هذه الخلايا يحملون تطلعات جديدة تتوافق مع طبيعتهم الفروسية وأفكارهم الاستقلالية. وعلى الرغم من أن معظم هؤلاء كانوا من الأميين، إلا أن العناصر الوطنية التي لم يتبعها الجهاد، نجحت في صهرهم وتكوين نظرياتهم وأفكارهم بفهائم اجتماعية تملأ عليها ما كانوا يعانونه من قصور المعرفة، وتستجيب لطموحهم في الاستقلال والحرية.

هكذا! ومن خلال حب الوطن، ولدت هنا خلايا سرية كثيرة، لا يعرف بعضها البعض، وأصبحت هذه الخلايا العاملة بصمت، والملزمة بقواعد الانضباط الصارم، وهي تغطي صفحة الأوراس بكلماها. وكان الفلاحون يتلقون خلال فترة الإعداد

(١) القوم (Goume) كان الأورقيون يقصدون بها عرب إفريقيا. وكان لكلمة ممتناها الخاص في الجزائر، حيث كانت وحدة (القوم) وهي الوحدة العسكرية الجزائرية التي تعمل غالباً تحت قيادة قائد الفرنسي، بمهما أساسية هي الاستطلاع وجمع المعلومات، وتوجيه القوات الرئيسية (الرائدة).
العسكري ما هو ضروري من توجيهات خلقية وسياسية، إلى جانب الإعداد النفسي، وفقاً لكل قواعد السرية ومبادئ الأمن والحيلة التي أمر بها القرآن الكريم. بدأ التحول في مواقف هؤلاء الرجال الذين يعيشون حياتهم بعيداً عن المدينة، وهم معزولون في وسط عدائي يترصب بهم، وفوق أرض جدباء مقفرة تقريباً. ولم يكن حدوث هذا التحول ممكنًا لولا تلك الجهود الجبارة التي بذلها رجال (المنظمة السرية- الشرف العسكري). فتراجعت نتيجة ذلك النزاعات العدوانية - غير الهادفة - وأخذ الرجال في السيطرة على أنفسهم، والتحكم بانفعالاتهم السلبية.

ولم تمض أكثر من فترة قصيرة حتى توافرت للرجال الثانين القدرة على العمل بفاعلية وقوة ضد كل قوة مهما كان صعدها المادي قوياً، وبها كان نوع التسلح الحديث الذي يمتلكه. ولم يكن ذلك إلا بفضل ما اكتسبه هؤلاء الفلاحون الموصوفون من قبل الاستعماريين (الخارجين على القانون) من معرفة سياسية جيدة، وتدريب مستمر ومنظم دعم من روحهم المعنوية العالية، وزاد من ثقتهم بأنفسهم. لقد ولد يا عمالقة من جديد، ولكنهم عمالقة فيهم كل صفات النبل والطيبة، يعملون في السر من أجل تطوير تنظيمهم الجديد، واحترام قواعده وأسسهم، والالتزام بمبادئه وأهدافه.

لقد عاد (مصطفى بن بولعيد) إلى الجزائر من جديد في العام 1954، ومعه ( بشير شحاني) وتم اتخاذ قرار في (اللجنة الشورية للوحدة والعمل) يقضي بموافقة التدريب وتطوير الاستعداد. وتم تعيين (عجول) الذي كان يستقر في (وادي
سرحا) للاضطلاع بمسؤولية القيادة العسكرية. فكان عليه توجيه التدريب العسكري، والحصول على الأسلحة والتجهيزات وتخزينها. وأصبح التدريب متزامناً ومستمراً تقريباً. وكان معظم (خارجين عن القانون) في هذه المنطقة هم من الذين هربوا من الجيش الفرنسي، فكانت لديهم معرفة أكثر من سواهم من التحول حديثاً في صفوف المجاهدين - في مجال التعامل مع الأسلحة. وانصرف (غرين بلقاسم) وأخرون لممارسة أعمالهم السرية، والاضطلاع بأدوارهم بثقة وتفاؤل.

شملت عملية تدريب الثوار (المماكي) كل ما هو ضروري لتأهيلهم من أجل الاحتمال المتصالب مثل: السير الطويل والأعمال القتالية، وحتى التدريب على التحكم بالانفعالات والعواطف، وتركيز التدريب على منح الرجال الفرصة لاستخدام خيالي المبدع من أجل اتخاذ القرارات الصحيحة، وإظهار روح الأخوة والاستعداد للتضحية.

وأصبح الرجال بعد ثلاثة أشهر من التدريب تقريباً - وهم على استعداد لتنفيذ أية مهمة قتالية. ونظرًا لاقتراب موعد تفجير الثورة (يوم - ي) فقد تم توزيع الرجال على منطقتي عمل، الأولى وتشمل: أشمول، والأهر خدو وزيلاتو، وبسكرة. أما الثانية فتشمل: الشلية، ووادي فم الطوب، ومروانة، وبطل، وباريكا. وانصرف رجال المنطقة الثانية للتجمع على حدود (فم الطوب) حيث الوادي الخصيب الذي تنتشر فوقه المستوطنات، وأخذوا في العمل تحت قيادة (غرين بلقاسم ولهور وباس). أما رجال المنطقة الأولى، فقد تسللوا خفية في الليل إلى (الطبيبي كارين) و(ضهرات ولد موسى) بالقرب من
(الحجاج) وليس بعيداً عن (أرياس) حيث المركز الرئيسي للمجمع المشترك في (الآوراس). واحتل هؤلاء منزل (علي بن شبى) الذي يضم إحدى عشرة عُرفة، انتشر فيها المجاهدون، وحرم عليهم أي اتصال أو التعريف بأنفسهم أو مغادرة المنزل. واستقر الجميع هنا ثلاثة أيام، تلقوا خلالها محاضرات عن قتال الثوار (المغاوير) ونظفوا أسلحتهم، وتفقدوها، وتدريبوا على استخدام الألغام والمتفجرات والأجهزة اللاسلكية.

وفي يوم 30 تشرين الأول - أكتوبر وصل مبعوثان من قبل (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) وانصلا بالزعيمين (مصطفى بن بولعيد وبشير شبحاني) وأبلغهما آخر التLEMمات. لقد أصبحت "اللجنة الثورية للوحدة والعمل" تثق ثقة تامة بالكفاءة القتالية المتوافرة في وسط الشعب الجزائري، قدر ثقتها بنضجه الثوري - الفكري - ومعرفته بالطريق المؤدي إلى الحل الحاسم.

فأصدرت أوامرها التي كان يتظرها رجال الأوراس بصبر نافذ.

إذا ضمن تاريخ الجزائر يومًا له أهميته الخاصة، فذلك هو يوم 31 تشرين الأول - أكتوبر 1954؛ ذلك لأن هذا اليوم هو الذي تم فيه اتخاذ أخطر القرارات التاريخية - يقينًا - وهي القرارات التي سترجع الشعب الجزائري كله في حرب ضروس لا يستطيع أحد في ذلك التاريخ - معرفة مدتها أو مدى اتساعها. وفي ذلك اليوم، خرجت الأسلحة والذخائر من مخابئها في الكهوف ومن مداها تحت التراب، لتحمس بعضها بعضًا على ما ستقوم به من الأعمال.
وهكذا، وبينما كان بعض الرجال يتسلمون أسلحتهم، والحماسة تزداد كي نفهم، كان هناك آخرون واجبهم مراقبة ونقل (200) كيلو غرام من الذخائر بواسطة شاحنة استأجرها لهم (بو شمال) لتصبح هذه الإرسالية في المسار إلى منطقة القبائل، وتسليمها الرجال الشجعان في هذا الأقليم، فمن كانوا يستشهدون بدورهم للعمل (من أمثال عمرو شو). واعتباراً من تلك اللحظة، سيأخذ المجتمعون في (الطبيبي كارين) و(ضهرات ولدموس) و(فم الطوب) كل ملامح المستقبل وفضائله. ولم يكن من السهل أبداً تجميع مثل هؤلاء الرجال الذين طالما مزقتهم السياسة الاستعمارية، ووجهاهما من الحكم الإداريين، وطالما فرقت بينهم القيادة والزعامات، لولا الاعتماد على أصول الجزائر الثورية، وقاعدتها الدينية الصلبة التي توحد ولا تفرق. تجمع ولا تبدد. ولحسن الحظ ان توافر للثورة رجال يتكون من الارادة الصلبة ما يزيد على كل الصعاب والعقبات، من أمثال (مصطفى بن بولعيد وشير شهيان وجبريل وبلال ولغرور عباس وبوستة) من يعود لهم دونما ريب فضل توحيد الجهود وتوجيه الطاقات نحو هدف التحرير. وقد كان نجاحهم رائعاً في الأوراس إذ استطعوا إقناع رجال المنطقة الأشداء بتوجهاتهم وأهدافهم، وحملهم على الاضطلاع بدورهم التاريخي.

قسم الرجال الذين جمعوا عند (الحجاج) وعددهم (270) رجلاً إلى مجموعات وزمر يتولى قيادة كل واحدة منها قائد مسؤول. وغالباً ما كان يتم الاضطلاع بدور القيادة طوعاً من قبل
الرجال الثوار(1) وتلقى الجميع التعليمات النهائية، وأصبحوا وهم يعرفون أهدافهم جيداً. وضطروا ساعاتهم على ساعة الصفر(س). وأخذوا في مغادرة (الثورة والدموسى) بعضهم يستخدمون الشاحنات، وبعضهم السيارات الصغيرة، أما البقانون ففضلوا التوجه سيراً على الأقدام. هذا في حين كان رجال (بلقاسم) يتطلقون بصمت وجرأة في اتجاه بطنه ومروان. وفي الساعة ذاتها كان رجال (عباس لفغور) يبتعدون عن حمام الصالحين في اتجاه (خنشلة). وما أن غربت شمس يوم 31 تشرين الأول - أكتوبر - حتى كان هناك أكثر من ستمائة مقاتل قد أطلقوا للأغارة على المخابرات العسكرية ومراكز الشرطة والأبراج، وكانت كلمات السر والإجابة: (خالد - عقبة) تتردد في كل مكان لتمزيق سكون الليل، وتشير حاسة المقاتلين. وكانت مجموعة (أشموم) قد أخذت في إقامة السدود الأولى من الحجارة على الطرق، وذلك لقطع كل محاور الاتصالات. وهذا فيما كانت الشاحنات والمركبات تتتحرك في اتجاه (بسكرة وبطة).

(1) كان الرجال الذين تم اختيارهم للقيادة هم: 1 - أحمد نواره لقيادة المغاوير- الكوماندو - في أريس. 2 - عباس لفغور لقيادة المغاوير في خنشلة. 3 - غرين بلقاسم لقيادة المغاوير في بطنه ومروان. 4 - حسين بن رحيل لقيادة المغاوير في بسكرة. 5 - طاهر نويشي لقيادة المغاوير في عين القصر. 6 - أبا الأشخاص الذين أسندت الهدف مهمة توجيه زمر المغاوير في المراكز المدنية، كانوا:
- رشيد بوشمال لعمليات مدنية بطنه - طيب خرار للعمليات في مدينة بسكرة.
وهي هناك رجال واجهوا الاضطلاع بمسؤولية متابعة العمليات، وتوسيع مجالاتها وأفاقها في كل اتجاهات مسارح العمليات (انطلاقاً من مبدأ تفشي بقعة الزيت) ومنهم (سي مكي) لتوجيه ثوار تكوت. (سي محمد ناجي) لتوجيه ثوار أم الطوب. (سي عبد الوهاب عصوفي) لتوجيه ثوار شرق المزاب. (سي محمد قنطرة) لتوجيه ثوار باريكا.
لتصل في موعدها المحدد بدقة، وتقوم بتنفيذ عملياتها على النحو التالي:

في بسكة: خرج الفداةيون المغاوير من دار الحجاج بقيادة حسين بن رحيل، ووصلوا في اليوم ذاته إلى بسكة، وفي الساعة التي كان فيها المواطنين المسلمون يغلقون نوافذ شرفات منازلهم، ويعمرون إصادها بالقضبان الحديدية. أما المدينة الأوروبية فكانت تتألق بأنوار المصابيح فيها كانت الأحياء العربية غارقة في ظلام حالك. وكانت أجراس الكئانس والأدبية تقرع داعية الأوروبيين للصلاة، وانطلق المغاوير لتنفيذ أوامر «اللجنة الثورية للوحدة والعمل» بضرب النقطة الحساسة في الجهاز العصبي للعدو والمتمثل بشكتة (سان جرمان) التي كان يقيم فيها لواء (الرماة السنغاليين). وانطلقت النيران، وأصيب حارس مدخل النكهة بجراح. كما أصيب المفتتش - الكوميسير - وهو عضو لواء برصاص في فخذه. وألقيت قنبلة حارقة على مركز النجارة، فأشخاص فيه النيران، وانسحب رجال جيش التحرير الوطني بسرعة مخفين وراءهم الفوضى والدمار. وتوقفت أجراس الكئانس عن الرنين.

وفي بطة: تميز البناء في المدينة بقوته وشدة تحصينه حتى كأنه قلعة منيعة من تلك القلاع التي كانت تقام أيام الرومان في وسط تجمعات السكان الوطنيين. وكان هذا البناء الضخم يضم مجموعة من الكثارات العسكرية التي أطلقوا عليها اسم «المعسكر»، والتي كانت تميزها جدران شاهقة الارتفاع. ووضع المجاهدون في اعتبارهم أهمية الهدف من الناحتين الاستراتيجية و النفسية، فقرر قادة المجموعات إرسال الكتلة الرئيسية من القوة
رمز الاستعمار. دمرته الثورة واقتتله من قاعدته

165
الضاربة بعد تقسيمها إلى أربع مجموعات تقوم بالإغارة على الأهداف العسكرية في وقت واحد، ولكن بصورة مستقلة؛ كل عن المجموعات البقية. وكان المجاهدون يرتدون جميعًا الألبسة العسكرية، وتحملوا أسلحتهم الآلية (الاوتوماتيكية) من المسدسات الرشاشة (ستاني) من طراز أميركي الصنع أو إنكليزية أو ألمانية. وكانت مجموعتان من هذه القوة قد وصلتا من قبل (الحجاج)، في حين جاءت المجموعتان البقيتان من (فم الطوب). وكان الهدوء المطلق يخيم على المدينة في ساعة بداء الهجوم (الساعة ـ س). ولم تصل المجموعة الأولى إلا في الساعة الثانية صباحًا. (وقد تأخرت مجموعة الحاج ـ عن موعدها بسبب اعتراف رئيسها عن تنفيذ المهمة في اللحظة الأخيرة، فتم تكليف علي بن خضر طاويلى - على الفور - بقيادة المجموعة) وعملت هذه المجموعة فور وصولها على وضع حارسين ـ خفيين - في (ود زمالا) ثم اخترقت المدينة العسكرية، ومرت من أمام ثكنة الفرسان الجزائريين الصباحية (السابحين). وهي الثكنة التي كانت هدف المجموعة الثانية ثم وصلت المجموعة إلى هدفها ـ وهو الثكنة التالية - التي كان يقيم فيها (الرمة). وكان من المفروض أن يقوم أحد الحرس الرماة من الجزائريين بمساعدة الثوار، وفتح باب الثكنة لهم عندما يتبادلون معهم كلمة السر والإجابة (خالد - عقبة). ولكن نظرًا لتأخير المجموعة في الوصول إلى الهدف، فقد ظن الحارس بأن موعد الهجوم قد تم تأخيره، وجاء تبديل الحرس، فجاء حارس جديد للبوابة. ولم يبق أمام مجموعة الاقتحام إلا استخدام المبادأة، واقتحام الثكنة عذراً، وتم تنفيذ الإغارة بسرعة مذهلة، فاصيب الحارس،
وحاولت المجموعة النشطة في داخل الثكنة غير أنها هزعت من ذلك، فاكتفت بحفرة من الدمار والذعر، وانسحب عبر الطريق المحدد لها. وكان لا بد لها من التعرض للكثير من الفرسان الصبائيح (السابعين) نظرًا للاضطراب من المرور أمامها، فهاجتها بعنف، ثم انسحبت بعد ذلك في اتجاه جبل (تبغرسين) حيث وصلت، ولما يصب أحد من مهاجمتها بأذى. وكان المنفذون في هذه المجموعة كلهم من (الداري كامل). وكانوا جميعًا أيضًا من اتبعوا دورة عسكرية وتلقوا إعدادًا نفسيًا خلال فترة طويلة.

وصلت بعد ذلك المجموعة الثانية بقيادة (عمر بن ناجي) قادمة من (فسطوف). وكان وصولها في موعد متأخر أيضًا، ولم يبق لها ما تفعله بعد أن علمت بأن المجموعة الأولى، قد هاجمت بالندابة عنها - ثكنة الفرسان الصبائيح. فانسحب بعدها أن أطلقته بعض الصلوات النارية على أبواب الثكنة وجرداءها.

ووصلت المجموعة الثالثة في الوقت ذاته، بقيادة (إبراهيم بوستة) فأغارت على مخزن الذخيرة، وتبادلت إطلاق النار مع رجال الخرس والحامية، ثم انسحبت في اتجاه مجنحات التل، والتحقت بنقطة الازدلاف (التجمع) في المنتفع المحدد للإلتقاء من قبل.

وقامت المجموعة الرابعة بقيادة (بلكاسيم) باقتحام ثكنة الخرس المتحركة، وكانت هذه المجموعة تضم ثلاثين مهاجمًا. ودارة معركة قاسية استمرت ساعتين، انسحبت بعدها المجموعة نحو (جبال عليل) شم النصوح الشمس، وقد حملت على كواهل أفرادها أكاليل الغار.

١٦٧
وفي خنشلة، جمع (عباس لغرور) رجاله الثلاثين في (حمام الصالحين) ثم قام بالهجوم (على نحو ما بسق ذكره).

وفي تكوت:

قام (جغروري) بقيادة مجموعة المجاهدين بمهاجة مركز الدرك الذي كان أفراده قد تلقوا إنذاراً مسبقاً واستعدوا للمجابهة. وقامت المجموعة بتدمر الجسر، وأتبت ذلك بنصب كمين في تيجان أمين.

وفي باريكا:

دمر المجاهدون خطوط المواصلات، كما دموا أيضاً مركز الاتصالات الهاتفية التي تصل (باريكا) بمدينة (سطيف).

رجلان إفرنسيان يرافقهما دليل معرف بولاية للإفرنسيين. وقد رفض هؤلاء الإذعان لأوامر رجال القتلة من المجاهدين. وكان لا بد من تفتيش العربة تنفيذاً لتعليمات القيادة الصادرة عشي الثورة والتي اعتبرت منطقة الأوراس بكاملها من المناطق المحترقة. وعندما رفض راكب العربة الخضوع للتفتيش، حاولوا استخدام أسلحتهم، جرى تبادل إطلاق النار، وسقط الإفرنسيان ودليلهم قتلا على الفور.

د - فجر يوم الثورة المسلحة (1)

كانت ليلة رطبة ومظلمة، غير أن ظلمتها كانت أشد قسوة على المستعمرين، لأنها توافقت مع احتفالات النصارى بعيد (جميع القديسين) (2) ولم يكن المستعمرون، وهم غارقون في ظلما تلك الليلة يعرفون قبضاً، أو يراودهم الشك، بأن ذكرى الليلة الحزينة ستبقى إبداً مرتبطةً بأياماً ما في تاريخهم. ذلك لانها تسببت في نزاعات اسطورة من أضخم الأساطير الاستعمارية.

كانت ليلة رطبة ومظلمة، وهناك، هبت على جبال الأوراس نسمة منعشة، صفتها لها أشجار الغابات الكثيفة. ووسط تلك الظلمة، كانت الأشباح تتحرك دونما ضجيج، وتسلق المرتفعات

(1) كاتب هذه الفقرة هو (جلول بووقفة) في كتاب (قصص من النار- إفرنسي) إصدار سيدي المجاهد- الجزائر- 1977 ص 37- 42. واعتمد الكاتب في كتابته على استجواب المجاهدين الذين اشتركون في الحدث التاريخي.
(2) عبد جمعي القديسين (TOUSSAINT) وهو عبد يحتفل به المجاهدون، وصديف اليوم الأول من تشرين الثاني- نوفمبر.
بحفاظات سريعة وثابتة، إنها أشباه سكان الجبال (أو الجبليون) الذين اعتدوا على السير الطويل فوق الصخور، وفي الغياب الشائكة. لقد قدموا من كل مكان، من المدن والقرى، من الأوراس ومن مناطق بعيدة عنها. كانت تلك المنطقة هي منطقة قبالة (توبيس) الشهيرة بأسها، والمنشأة على حدود: اشمول وحجاج وأريس. أما (البوسليمانيون) المشهورون بإبائهم وشحيمهم فكانوا على حدود أريس. (وقد عرف عنهم حبهم الشديد لتربة الصقر). ويبقى (الغسبريون العنيدون) هم حراس أبواب الجنوب، وسيكون من نصيبهم الفخر لقيامهم بنصب أول كمين في مضيق نفق تيجان أمين - على بعد ثمانية عشر كيلو مترًا إلى الجنوب، وذلك في صبيحة اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) 1954.

وكان هناك أيضاً قبائل أبناء العمومة من (الأشراف والسراهمان) والذين يتحدثون اللغة العربية بطلاقة، كما يتحدثون بلهجته البدوية - الشوايا - باتفاق غريب. وقد عرف أبناء هذه القبائل بشدة بأسمهم وصورة مراسهم. غير أن عائلاتهم تستعرض للانتقام الوحشي وأعمال الانتقام من قبل الإفرانسيين، وذلك كرد فعل منهم على الاشتباك الأول مع قوات الثورة. يستكون هذه العائلات أول من يتعين الاضطهاد، وأول من يتعرض للتعذيب بسبب قصة الكمين التي تتلخص بالتالي:

قام ثمانون مجددًا بقيادة بشير ورطان - الملقب بسيدي هاني - بنصب كمين لقافلة فرنسية تضم كتيبتين، واشتبكوا مع القوة الإفرانسية لمدة (24) ساعة، سقط خلالها (200) جندي بين...
تجلد الإشارة بعد ذلك إلى أن القبائل البعيدة من ( النماشة والعامرين ) لم تكن آخر من وصلت في الموعد المحدد إلى جبال الأوراس. وكان رجال هذه القبائل قد انطلقوا، ومعهم آخرون، من ضهرة ( ولدموسي ) ليصلوا الأوراس، وليجدوا فيها إخواناً هم قد حشدوا ( 350 ) مجازاً من القتلى الأشداء. وكان ( مصطفى بن بولعيد ) هو أول من وافق المكان، الذي ضم المجاهدين من مختلف المستويات الاجتماعية، ومن كل المستويات الثقافية، ومن جميع العناصر الوطنية، فكان ذلك برهاناً ساطعاً على فشل الجهود الاستعمارية التي طالما جهدها خلق الانقسام بين المسلمين، من عرب وبربر، وبين أبناء المدن والقبائل، كل ذلك بهدف تكوين مراكز قوى متصارعة تسمح لفرنسا باختيار نخبة منهم وتدريبهم لمحاربة إخوانهم في الدين والوطن. فكان هذا التجمع أول انتصار للثورة. وها هم الآن ( 350 ) رجلًا، كلهم رجل واحد، لا تفاوت بينهم ولا تنافر. إنهم على وشك البدء في إطلاق شرارة ثورتهم المسلحة، ولم يبق بينهم وبين الشروع في التنفيذ أكثر من ساعات قليلة. إنهم يملؤون ولادة الثورة التي...
استمرت لتطه أعمق الشعب الجزائري، وتصهره، لتجهه نحو الهدف الواحد، وهو هدف الحصول على حقوق لم يعرفها الجزائريون أبداً منذ اجتاحت جحافل الغزو الفرنسي بلادهم.

هنا، في الأوراس أيضاً، التقى المجموعات الخاصة، وقد ضمت رجالاً ملؤهم الثقة، حملوا السلاح الذي استخرجوه من خالبته الكثيرة والتي لم يعرف أحد مكامتها سواهم، وكان النجاح حليفهم عندما جاءوا بها من جنوب الأوراس، ومن (وصوف) ومن (ليبيا). ودفنتها في انتظار اللحظة الحاسمة. وكان (مصطفى بن ستة) هو أول من عمل لتنسيق التعاون بين مختلف القوى في القطاع (تكوت). وكان يعيش في عالم الخفاء منذ سنة 1952. ولم تنجز عمليات التفتيش في العثور عليه، أو اقتفاء أثره، بالرغم من كل الجهود التي بذلتها قوة (الحرس المتحرك) والتي ضمت ثلاثة آلاف مقاتل، جاءت بناء على طلب (حاكم أريس) للبحث عنها أعلن عليه اسم (المجرمين) و (الملاحين) على القانون.

وقامت هذه القوة الفرنسية بتمشيط المنطقة مرات عديدة. غير أن (مصطفى بن ستة) ومعه (الملاحين على القانون). استطاعوا البقاء بعيداً وبصوره مستمرة عن قبضة القوات الاستعمارية. وها هم الآن يستعدون لمرحلة جديدة من العمل الثوري، ومعهم (حسين بن رحيل) الذي بدأ العمل السري - متخفاً - منذ سنة 1943، وكذلك (صادق سبسب) الذي اكتسب شهرة استفورية باعتباره قناصاً من مهنة الرماة. و (مكي عيسى) الذي طالما تعرض للمطاردة، والذي اشتهر منذ قليل أحد

172
رجال الدرك برقصة واحدة في جبهته، عندما كان هذا يطارده في وضع النهار. وكذلك أيضاً (مسعود مختار) و (عمران بلقاسم) الذي ستحدث عنه البرقية المرسالة من قبل السلطة الحاكمة، بما يلي: «لقد قتل و واحد من كبار قادة المتمردين»، غير أن البرقية تجاهلته العدد الكبير الذين صرعهم غربين بلقاسم - من جند العدو. قبل أن ينال شرف إحدى الخاسرين. ثم هناك (أحمد الجدما) الذي اشترك في الثورة منذ بدايتها، ولون يتجاوز الرابعة عشرة من عمره(1) وتبقي الظاهرة المثيرة في تجميع هؤلاء المجاهدين، انصهر كافة الفوارق الناجحة عن المشأ، لقد وقفوا صفاً واحداً - كالبيان المرصوص - فابت من العسير التمييز بين الجليل والابن المدينة، أو من عرف بؤس الحياة وفقرها، ومن عاش رغداً وبحبوبتها. وها هو الجبلي (ابن - أوكايل الغولية) بهامته الضخمة ولونه البروني وملامه القاسية التي تنطق بها قسمات وجهه، وتعبر عنها شفتاه وهما تذكرون الكلمات بطريقة البدائية (الوصيفة بالوحشية) فيدخل بها الربع إلى قلوب أعداء. لقد كان يمتلك قوة جبراء طالما كانت له عونًا لانقاذ عدد كبير من رفاقه الجريح، أثناء اشتباكاتهم الدموية الرهيبة، غير أن جهله (أميته) كانت تضعه باستمرار في مؤخرة إخوانه، وكان شأنه في ذلك شأن الكثيرين من رفاق طفولته الذين ما عرفوا في الحياة سوى حروات الأرض الصخرية وزراعة الأرض المجدبة تقريباً، والتي كانت الشيء الوحيد الذي تركه لهم الاستعمار الاستيطاني. وقد خضع هؤلاء البؤساء المحرومون، إلى حين، لأساليب الإدارة الاستعمارية الإمبراطورية، حتى

(1) وهو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أفراد مجموعته، واتنكره لهم، فيما اعترض الثورة للعمل في الإشراف على مزرعة بنزهة بطنية. 173
أنقذتهم منها جهود دعاة الثورة (الحركين). ومالبثوا أن استردوا الشعور بعظمتهم، فأقبلوا تبعاً - الواحد بعد الآخر - وانضموا إلى جيش التحرير الوطني الذي جسد لهم أهداف وجودهم.

وإذا كان (ولد الغوله) يمثل هذه الفئة، فقد كان (جيلاني حداد) يمثل الفئة المقابلة، فقد نشأ جيلاني في المدينة، وعاش بيسير وبحبحة، وتميز منذ أيامه الأولى في الحياة بذكائه الحاد، فكان من السهل عليه أن يؤمن بضرورة استخدام العنف الثوري، وحاجة خوض الصراع المسلح. وكان يعيش في وسط جامهر المدينة فتمكن له الاتصال بنظمات الثوار (المالكية). وكان هذا الاتصال خطراً في حد ذاته، لا سيما وأن جيلاني كان معروفاً بأفكاره الثورية ونزاعاته التحريرية. وسيمضي عام على موقفه مع رفاقه في الأوراس، عشية الثورة، قبل أن يردونه هؤلاء الرفاق الوداع الأخير بعد أن حملوه من ميدان المعركة، وصعدوا به موارته إلى جانب رفيق له سبقه إلى قبر مهجور. لقد سقط (جيلاني) وهو يحمل سلاحه يرد به العدوان الإفرنسي عند مدخل القرية التي لم يتجاوز حدودها ولم يغادرها أبداً منذ بدأت حرب التحرير، وكثيراً ما كان أخوانه المجاهدون يتحدثون عنه بعد ذلك وهم يستعدين ذكريات الحضارة الإفرنسية، التي لم يعرفوا منها إلا أعمال الإبادة ضد الوطنيين المسلمين الذين كانت تصفهم فرنسا (بالتوحشين).

يبقى هناك مجال للحديث عن (بو عيسى) أو (رجل المستنقع) الذي لم يكن قد عرف طائرة في حيائه - قبل الثورة - شأنه في ذلك شأن معظم مواطنيه، ولكن ذلك لم يمنعه من توجيه
نيرانه في معركة (تكرت) ليستقط طائرة فرنسية فوق أرض المعركة. وكان من المرغوب فيه التعرض للذكر كل أولئك الإبطال الذين اشتركوا في معركة (ضرح ولدموسي) الشهيرة والتي ولدت في اليوم الأول من تشرين الثاني - نوفمبر 1954. وهو اليوم التاريخي الذي انطلقت فيه جماعات كثيرة، تضم الواحدة منها أحد عشر رجلاً، لتنشر في وهاد جبال الأوراس وشعابه، وهي تتعارف بعضها على بعض بكلمات السر والتعارف السريتين (سيدي خالد) و (سيدي عقبة). ففي تلك الساعة (س- صفر) قام الثوار بتدمر (جسر تكرت) وتم بذلك عزل رجال الدرك الذين كانوا يستقرون في القرية. وهناك، على بعد مائة كيلو متر من تكرت، اجتاح الثوار (فم الطوب) حيث كانت أرطال المجاهدين قد غادرتها على عجل وهي متجهة إلى (بطنة). وعلى مسافة أكثر بعداً، كان الثوار يهاجمون مراكز الجيش والدرك والشرطة في (خنشلة).

وفي اليوم التالي، كانت أخبار الفرحة التي طال انتظارها وقد ملأت كل بيت جزائري، في الشمال كا في الجنوب، وفي الشرق كا في الغرب. لقد انبث صياء الأمل من قلب الظلمة الحالية. وإذا كانت طلقات النيران قد ألهمت القرى والمدن في السهل والجبل، فإن أصداها القوية قد تردت عالية في جبال القبائل والأوراس. بل وفي كل مكان، فكانت زغاريد نساء القبائل (بوبو) هي أصداء زغاريد أخواتهن من نساء الأوراس، ومعهن جميعًا كانت نسوة المدن وصحاري الجنوب يرددن (بوبو) الفرحة.
لقد ارتبطت الأسئلة السابقة كلها بالعملية التي اشتهرت باسم (عملية تاغيت) أو (كمين تيجان أمين) والتي كانت أول عملية من نوعها سقط فيها: الدليل معونيش، والمدرس الأفريقي مونروت). واستشهد بعد ذلك كل أبطالها، ولم يبق منهم على قيد الحياة سوى المجاهد (طارقوري المبارك) وهو رجل كا يقال عنه (لا ماضي له قبل الثورة، وأن كل قصة ماضيه قد بدأت في هذه العملية)... 


حيث تقدم مع جماعته التي ضمت أحد عشر رجلًا لنصب كمين (تيجان أمين) في المضيق الذي يفصل شمال أريس عن الجنوب، والذي تغطيه من الجنوب سلسلة من الجبال المكسوة بأشجار النخيل. وكان هدف العملية، وفقًا للتعليمات التي أصدرها رئيسهم وصديقهم - مصطفى بن بو العيد - هو منع رجال الدريك - الجنرال - من التحرك، وعزلهم، وتدمير روهم المعنوية. وإرغامهم على البقاء في مراكزهم وثكناتهم لا بحرونها. وتم نصب الكمين، ولم تقرب أيًا مركبة من موقع الكمين حتى الساعة الثامنة صباحًا، عندما وصل باص (بسكرة - أريس) وفي داخله الدليل - القائد - معونيش، عميل الأفريقيين، وإلى جانبه المدرس مونروت ومدرس آخر، بالإضافة إلى الركاب من المواطنين الجزائريين المسلمين. وظن الدليل أن العملية تتعلق بجماعة خارجية على القانون)، كما كانت تسمى السلطة الاستعمارية، وأراد (معونيش) على ما يظهر إضافة خدمة جديدة لسجله في الأخلاص لسادته، فأظهر مسدسه، محاولًا إطلاق النار على المجاهد الثائر الذي أوقف الحافلة (الباس) والذي كان خلف...
الناطقة تماماً حيث كان يجلس الدليل والمدرس الإفرنسي. ورأى
اثنان من أفراد القمين هذه الحركة وهيما في موقعها المرتفع بين
الصخور، فأطلقوا عليه النار وأردواه قتيلاً، وأصابت رصاصة
المدرس (مونروت) فقتله. كما أصيبت زوجة المدرس برصاصة
ثالثة لم تقتلاها.
وصعد (طغوري المبارك) إلى الحافلة، فأوضح لركابها مهمة
القمين، وشرح لهم ما كان يحدث خلال تلك اللحظة من أعمال
ثوروية، لا في المنطقة وحدها وإنما في كل أنحاء الجزائر.
واستأنفت الحافلة رحلتها، وأوصلت الجريحة إلى مستشفى أريس
في الساعة الحادية عشرة، ولم تلبث أن أقبلت طائرة عمودية -
هيليكوبتر - فنقلت الجريحة الإفرنجية من مستشفى بسكرة إلى
مستشفى بطنجة. ولقد أثار وصول هذه الطائرة العملية كثيراً من
الصخب والضجيج، حيث حاوِل رجال الدكر وأعوان السلطة
الإفرنجية تصنيع قصة تراجيدية للبرهان على العظمة الإفرنجية
والقوة الإفرنجية، ولم يعرف رجال الدكر في حينه أن هؤلاء الذين
لم تقع أنظارهم قبل ذلك اليوم على (طائرة عمودية) سيعتادون
عيا قريب على التعامل مع كل أنواع الطائرات، وتركها طعمة
للغرس.
كان الإفرنجيون جميعهم من مدنيين وعسكريين مسلحون
تسلحوا حديثاً وجدياً، وبصورة خاصة منهم المدرسين الذين
يخططون أكثر من سواهم بالمواطنين المسلمين.
قامت القوات الإفرنجية بحملة مشتركة ضمت كل صنف

177
الأسلحة، وذلك بعد كمين (تيجان أمين) بثلاثة أيام، واختصمت هذه القوات - أريس - وتوجهت بعدها إلى موقع الكمين الذي تعرض للقصف طوال ساعات عديدة بينيران الدموية والطيران. وانتقلت قوات الحملة بعدها إلى تكوت، وأصلحت الجسر الذي يقع عند مدخل القرية. وفي اليوم التالي (4 تشرين الثاني - نوفمبر) طوّقت القرية والأكواخ المنتشرة حولها، وبدأت بعملية اعتقال المواطنين واستجوابهم وتهديهم بالحرق. كما أخذت بقتل أهالي الثوار وأفراد عائلاتهم وذلك بعد الاحتفاظ بهم كرهن لمدة خمسة عشر يومًا على أمل أن يقوم الثوار خلالها بتسليم رقابهم للجلادين. ورفع المحققون إلى رؤسائهم خلال الأيام الثلاثة الأولى قوائم - لوائح - تتضمن أسماء (الخارجون على القانون).

وأمضت السلطات الاستعمارية وهي تمارس أعمال الإرهاب، تعتبر أنها قادرة بهذه الأساليب على عزل الثوار وحرمانهم من كل دعم. فتقدمت على تعذيب المعتقلين وقتل بعضهم، معتقدة أن ما تم تنفيذه من أعمال ثورية لا يتجاوز نطاق (الهيجان المحلي) مما يجعلها قادرة على إخماد الهيجان الجماهيري بشهولة، بنفس الأساليب التي سبق استخدامها في سنة 1940 لإخماد هيجان سطيف، وجيرالدا، وأعلن الضباط الفرنسيون أنهم تلقوا تعليمات ت قضية بإعادة تنفيذ فصول القصة الباشية، كما أعلن هؤلاء الضباط عن استعدادهم لإعادة تنفيذ مثل تلك العملية، غير أن ذلك لم يزد المجاهدين الجزائريين، إلا تصميماً.

ولم يزد الشعب الجزائري إلا عناداً لاحتضان الثورة، حديثة العهد بالولادة، ودعمها ورعايتها. وأصبح جيش التحرير الوطني
الجزائري هو الملاذ الوحيد من أجل حمل السلاح، وخوض الصراع ضد الظلم والظلمين، إذ أنه على الرغم من كل التهديدات والممارسات الإرهابية، فقد استطاع المواطنين الجزائريون إحاطة القوات الفرنسية، في كل مكان، بمناخ من التحديد وفقدان الأمن، وقام الأنصار الجزائريون (المسلمون) الشجعان، بتأمین الاتصال بين المواطنين وبين جيش التحرير الوطني في كل مكان من البلاد.

ونظراً لمنع الرجال في (تكوت) من مغادرة المدينة تحت طائلة التهديد بالقتل، إلا بعد الحصول على تصريح إجازة من السلطات الرسمية، فقد وقع على النساء واجب تأمين هذه الاتصالات. واضطرعت النساء المجاهدات بكل ما كان يطلب إليهن تنفيذه من الأعمال الشاقة والخطرية، فكانت جهودهن وأعمالهن ذات أهمية لا تقل عن زوجة البطل (بلقيس ولد الغول) التي لم تكن زغاريدها (البوش) وزغاريدها أخوتها، في المعركة إلا فهما يرتفع على صخب القتال وضجيج الأسلحة، مما كان يثير حاسة المجاهدين ويدخل الرعب في قلوب جنود الأعداء.

وقد كان صوت (العامة الغولة) دونها مبالية أشد وقفا وأعمق. وكانت العامة الغولة ضخمة الجثة، قوية البنت، سوداء اللون تقريباً، ذات شجاعة لا تطأها مقايس اختبارات الشجاعة، إنها لم تتذكر في يوم من الأيام، ولم ينل منها التعب أبدا، وهي تحوب الجبال بستمرار، لتنتقل الأخبار إلى المجاهدين. ولتؤمن لهم الاتصالات الضرورية، طوال سنوات الحرب. فنسجت بذلك للتاريخ أسطورة ملحمة طويلة جداً.

١٧٩
بيحيث يصعب الإمام بها أو الإحاطة بفصولاها. وكانت مدرسة للنصر والجهاد واحتمال كره القتال والاستعداد الدائم للضحية والفاء.

بمثل هذه النماذج الأسطورية افتح الثورات التاريخية أبواب التاريخ.

«.. انطلاق الثورة في متيجة ( متوجة) (1)

اختار رئيس (قسمة) في (برج المنيل) أربعة شبان من بين مجموعة كان أفرادها يتحركون شوقًا ويبدون حاسة خوض الصراع المصري ضد الاستعمار الإفرنسي الجائر على صدر بلادهم. ولم يكن الحافي لاختيار هؤلاء الأربعة من دون سواهم في شهر تموز- يوليو- 1954 - إلا نتيجة طبيعيّة لما عرف عنهم من نشاط ومن فاعلية علاوة على صغر سنهم. لقد كانوا يشكلون قسماً من خليفة تابعة لتنظيم (اللجنة الثورية للوحدة والعمل). وكانوا آنذاك العمل مع العشرات من إخوهم المجاهدين لنشر الدعائية وجمع المعلومات عن المجموعات المشتركة - كومون ميكس - وكان هذا الواجب من أصعب الأعمال في تلك الفترة، نظراً لما كانت تعرض له الجزائر وشعبها المجاهد من ضغوط.

(1) كاتب هذه الفقرة هو (إمحمد جنان) في (قصص من النار- أفرنسي) إصدار سنة الجزائر. ص 43- 48. والكاتب أحمد جنان من فرقاء المجاهدين في (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) وقد عمل في منطقة (برج المنيل) ولم يكن عمره أكثر من شه時に عاها يوم اشترك مع إخوته المجاهدين في الهجوم على التكنات العسكرية في (بليدا) (بيوفاريك).

180
استعمرية قاسية. وفي بداية الأمر، فصل الأربعة عن رفاقهم المجاهدين في الخلايا القديمة، واتخذت قيادتهم كل ما هو ضروري من الإجراءات لإبعاد الشبهات والشكوك عنهم، وحماية الأعمال التي كان يتم تنفيذها استعدادًا لتفجير الثورة. واستمر التعامل معهم بأسلوب دجاجة الجذور، من قبلي كل إخوانيهم، لذلك لأنهم كانوا حتى تلك الفترة من العناصر الضعيفة إذا ما تم تفتيشهم بقديم التشترين. وكان هناك خوف من ضعفهم نحو الانقسامات التي كان يصطدمها النظام الاستعماري في قلب الحركة الوطنية.

وهذا، بقي اتصال هؤلاء الأربعة، خلال مرحلة الإعداد، مقتصرًا وتحديداً بواحد من رجال التنظيم السري، كانت السلطات الاستعمارية تبحث عنه منذ أحداث سنة 1947. وكان واجبه تدريب الشباب الأربعة على استخدام الأسلحة وأساليب القتال، غير أن هذه المرحلة لم تستمر أكثر من أشهر قليلة، إذ كان قادة التنظيم قد تسلحوا بالخبرة التي استخلصوها من تجاربهم الحية في سنة 1951 والتي عايشوها في قلب التنظيم السري. وكانت هذه الخبرة المستخلصة تفرض على رجال التنظيم السري (التحرك بسرعة حتى لا تتوقف للعدو مهلة زمنية كافية تساعده على اكتشاف التنظيم ومعرفة أهدافه). ومن أجل ذلك، احتفظ القادة بوعد بداء الثورة سراً، ولم يعلنوه حتى اللحظة الأخيرة، ولم يكن اختيار موعد بدء الثورة اقتراحًا عشوائيًا، أو اتفاقياً مص_massaً، وإنما كان عملًا مدقّساً، فتحديد هذا الموعد ليصادف الأول من تشرين الثاني- نوفمبر - حيث (عيد جميع القديسين) هو مناسبة اعتاد الرجال الاستعماريون على الاحتفال بها.
ففي الساعة الواحدة من منتصف الليل، وهو توقيت القيام بالعمل. ينصرف رجال الإدارة الاستعمارية إلى احتفالاتهم المعتادة، وتكون الإدارة في حالة عطالة تقريباً، الأمر الذي يضمن للثوار فترة زمنية كافية لتوجيه ضربتهم، والانسحاب بعد ذلك، إلى قواعدهم الأمونية دونما تهديد مباشر بالطيارات. وهكذا تم اتخاذ كافة التدابير التي تؤمن انطلاقاً الثورة لتكون عامة وشملة منذ اللحظة الأولى.

لقد تم اختيار الشبان الأربعة، للاشتراعك في عمليات تفجير الثورة في إقليم (فوفاريك) في حين تم اختيار سواهم للاشتراعك في تفجير الثورة في إقليم (بليدا)، وعرف هؤلاء باسم (خلية عقيل عمولا). وتم إعلامهم بمهمتهم يوم 29 تشرين الأول - اكتوبر - أثناء قيامهم بالتدريب على المسير الطويل. وتولى إبلاغهم ذلك رئيس قسم التنظيم شه العسكري في (قسمة) والمشهور بلقب (السيد الشارب) - نسبة إلى شاربه الضخم الذي كان يغطي وجهه وهو من (عين سكونا- مجمع برج المنيل). وقد استمر في أداء دوره الثوري حتى سقوطه في ميدان الشرف سنة 1959.

المهم في الأمر، هو أن السيد الشارب أعطى أوامرها إلى الشبان الأربعة بالتوجه إلى الجزائر للاتصال (بالسيد الطاهر) الذي كان من واجبه مراقبتهم لمقابلة مسؤول كبير (لم يكن غير العقيد عمران بحسب ما أصبح معروفاً بعد ذلك). وكان من المفروض أن يتم هذا اللقاء في الجزائر العاصمة. وقام (السيد الطاهر) بتحديد موعد اللقاء ومكانه: (في الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم التالي - في ساحة بور سعيد). وما أن
وصل الشباب الأربعة في الموعد المحدد إلى المكان المعين، حتى تبين لهم بأن موعد المقابلة ومكانها هو مجرد تدبير احترازي، إذ قالهم هناك مرة أخرى (السيد الطاهر) ورفقهم إلى مقهى يقع في (برجية) من مرفقات (حبي القصبة). وكان هذا المكان هو مركز الالتفا بكافحة المجاهدين القادمين من القبائل للمشاركة في العمل المشترك الذي كان يتقرر في اجتماعات الجزائر.

قد يكون من المناسب هنا التوقف قليلاً عند ظاهرة - تدابير الحيطة المشددة - التي رافقت اتساع أفق العمل وتطوره. إذ أن هذه الظاهرة، لم تكن في الواقع إلا نتيجة من نتائج انقسام الحزب، وتمزقه، وقد حرص القادة على الإفادة من هذا الانقسام واستخدامه رداً خارجياً، وستاراً لحماية الحركة السرية. وفهم هذا الانقسام وانعكاساته لا بد مرة أخرى من العودة إلى المراحل الأولى لتنظيم (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) التي ضمت الأجنحة المتطرفة والحيادية كرد على صراع المركزيين والمصالحين في حزب انصار الحرية والديمقراطية). وقد ضمت أجنحة (اللجنة الثورية للوحدة والعمل) معظم الثوار السريين - الماكي - والذين كانوا يميلون إلى استخدام وسائط الصراع المسلح، وكانوا في الوقت ذاته يمثلون كل أقاليم الجزائر - من قسنطينة حتى منطقة القبائل، ومن أقصى الغرب إلى وهران وأقصى الشرق - وقد جاء الانقسام في قلب الحزب ليترك شعوراً لدى المتطرفين والحياديين بأنهم في النهاية هم (ضحايا هذا الانقسام) وكان انتقاليهم لمارسة العمل الثوري في سنة 1947، نتيجة قناعتهم بأنهم وهم يحملون السلاح، سيعيشون معارك حرب التحرير حتى
نهائتها. غير أن قادتهم خُلِّلوا عليهم، وخلفوه وراءهم، وقطعوا الجسور التي تصلهم بهم، ولم يبق أمامهم إلا البحث عن الوسائل المناسبة للتخلص منهم. وكان من نتيجة ذلك أن وقع عدد كبير منهم في شباك أجهزة الشرطة (البوليس) الإفرنسية.

ومن هنا يمكن اعتبار كل تدابير الخطة وإجراءات الأمن هي عملاً شرعيًا وضروريًا، لا سيما وأن الحاجة كانت تفرض تطوير النشاط السري ليشمل كل الصفحة الجغرافية للقطر الجزائري، وكان ذلك بدقة هو سبب استدعاء الشباب المنظم في الخلايا إلى الجزائر التي لم تكن أبداً المحطة النهائية في رحلة تفجير الثورة في الساعة (10:00) من اليوم ذاته (9 تشرين الأول - أكتوبر). بعد عشرون مجانداً تقريباً، إلى شاحنة كبيرة كانت تنتظرهم في الممر الواقع بين (الأوروا) و (نادي الضباط) لتقلتهم إلى (الصومعة) في وادي عايش. حيث كان على هؤلاء المجاهدين الانتظار لمدة ساعة أخرى في مزرعة يملكها (ابن طوطه)، وهي المزرعة التي عاد المجاهدون للاقامة فيها فترة (24) ساعة. حيث أُعلموا بوجود انفجار الثورة. وكانت الظاهرة المثيرة هي أن هؤلاء العشرين الذين نقلتهم الشاحنة. لم يكونوا أبداً على معرفة بأمر وجود مجموعات أخرى كانت تقيم معهم في المزرعة ذاتها، أو تنتشر في المزارع القريبة الأخرى. كما أنهم لم يعرفوا أن هناك منازل أخرى تجاور المنزل الذي أقاموا فيه. وكان ما أمكن لهم معرفته هو أنهم نقلوا الى كوك يستخدم لحفظ علف الحيوانات، وطلب اليهم عدم مغادرة طوال اليوم، إلا لقضاء حاجاتهم الضرورية جداً. ولكنهم عرفوا بعد ذلك، أن الذين
حضروا قد تجاوز عددهم الخمسين رجلاً، جاءوا كلهم من القبائل.
كان الهدف هو الهجوم على ثكنة (بليدا) وثكنة (بوفاريك).
وكان على المجاهدين المحليين، وعددهم قليل نسبياً في تلك الفترة،
الإغارة على مكتبة (علي بابا) وتدميرها. ولقد كان لكل عملية
من هذه العمليات قصة، غير أنه من المناسب هنا انتقاء قصة
واحدة منها، هي قصة الإغارة على ثكنة (بوفاريك). ولقد كان
الهجوم على هذه الثكنة (وعلى ثكنة بليدا أيضاً) نتيجة أبحاث
طويلة، ودراسات مستفيدة، وإعداد دقيق. وكان الهجوم على
ثكنة (بوفاريك) يعتمد في أساسه على الرقيب (سعيد بن
طوبال - وهو شقيق الأخضر بن طوبال عضو المجلس الوطني
للثورة الجزائرية). أما الهجوم على ثكنة (بليدا) فكان يعتمد على
(سعيد قودي) من مواليد برج المنيل، وكلاهما كانا يخدمان تحت
العلم الفرنسي، وكان الهدف من الهجوم على الثكنات هو
الاستيلاء على ما يمكن الحصول عليه من الأسلحة، والتي كان
الثوار أحوج ما يكونون إليها. وكان (الأخ سعيد) في هذه الليلة
هو رئيس الخرس، وعليه تقع مسؤولية تبديل الخفراط طوال مدة
(24) ساعة. وهذا يعني أن مفتاح الدخول إلى الثكنة كان في
قبضته. وعلى هذا، غادرت مجموعة (الكوخ) مقرها في الساعة
(00:22) تقريباً. وسارت لمدة ساعة تقريباً قبل أن تلتقي
بمجموعة أخرى في كروم من كرومون، غير بعيد عن الثكنة.
وهنا فقط ظهر العقيد (عمروان) في وسط المجاهدين وهو يحمل
مسدسًا ألمانيًا. فيها كان مرافقه يحملان مسدسات رشاشات إنجليزية
(طراز ستين) وكانت تلك هي كل الأسلحة التي توفرت لإفراد
المجموعة.

١٨٥
مكثت مجموعة الفدائين المجاهدين في كرم العنب فترة قصيرة من الوقت، حتي إذا ما كان موعد التنفيذ، تحركت نحو هدفها، ووصلت إلى جسر كان يقع على مقربة من الكثّنة، وتوقفت عنده، وانتشر الأفراد على أطراف الجسر، وتحته، بينها توجه اثنان من الفدائين إلى الكثّنة ودخلها برقة رئيس الحرس (الرقيب بن طويلال) وتوجه الثلاثة إلى مستودع الأسلحة، وشرعوا بقطع السلاسل الحديدية الغليظة التي كانت تقيد الأسلحة وتثبتها. وعندما انطلقت المجموعة لاقتحام الكثّنة، تبّه أحد رجال الحرس، وأعطى شارة الإنذار. وفشلت العملية في تحقيق هدفها. (و بالطريقة ذاتها أصاب الفشل عملية الإغارة على كثّنة بليدا)

لقد كان بالمستطاع تحقيق النجاح في عملية الهجوم على الكثّتين، لو أمكن اتخاذ المزيد من تدابير الحيطة عند التنفيذ، وكان النجاح في تنفيذهما - لو حقق - سيدعم من قدرة الثوار، خلال المرحلة الأولى من عمر الثورة. وإذا كان هدف العمليات الأخرى التي نفذت في كل أنحاء البلاد هو الإعلان عن بدء الصراع المسلح، فقد كان هدف العمليتين هو الحصول على الأسلحة التي يتطلبها هذا الصراع. وكان من نتيجة هذا الفشل أن تعرض ثوار الفبائلي وثوار الجروة للمعاناة المريرة من نقص الأسلحة في أيديهم، منذ الأيام الأولى لانطلاق الثورة. وليس بالإمكان القول أن فشل العمليتين قد غير من مسار انتشار الثورة وطورها وفقطماً ما كان يرغبه قادة الثورة ورجاهما. وبات لزاماً على قادة الثورة توسيع أفقي ثورتهم بضم المناطق وتنظيمها على مهل، وبصورة بطيئة، دواراً بعد دوار، وقرية بعد قرية. وقد أفاد الثوار
السريون - الماكي - من مجموعة الظروف، لضم المجاهدين إلى صفوفهم بصورة انتقائية، وتنظيمهم، حتى امتد تنظيم جبهة التحرير الوطني وجيشه ليغطي كل تراب الوطن. وعلى كل حال، فإن (الجروة) لم تتأخر كثيراً عن اللحاق بركب الثورة، على الرغم من هذا الفشل، وأمكن لها الابتعاد بدورها، حتى إذا ما جاء مؤتمر الصومام (في 20 آب - أغسطس - 1956) كانت (الجروة) قد نجحت في تصحيح الأوضاع، ووضع الأمور في نصابها الصحيح.

أما بالنسبة لمجموعة التي أقررت على نكتة (بوفاريك) فقد أصبح لزاماً عليها بعد فشلها في تنفيذ مهمتها، السير طوال الليل للابتعاد عن مسرح العملية. وكان السير شاقاً عبر الحقول وفي الأراضي الوعرة، كما كان أفراد المجموعة يجهلون الطريق المؤدي إلى نقطة الإزدحام (الاجتماع). وهكذا فإنهم لم يصلوا إلى الصومام) حتى شروع الفجر، ومن هناك، استقل أفراد المجموعة مركبة نقلتهم إلى (برج المنيل). وتعرض أفراد المجموعة في بعض مراحل الطريق خطر الوقوع في قبضة الدرك الذين أقاموا الحواجز على الطرق للتأكد من هوية المسافرين، وإلقاء القبض على (الخارجين على القانون) وقبل الوصول إلى (برج المنيل) بما يعادل ساعتين من المسير، نزل أفراد المجموعة من مركبتهم، وتوجهوا سيراً على الأقدام نحو منزل (العم أحمد) الذي كان يشرف على تدريبهم خلال مرحلة ما قبل الثورة. وقد عمل (العم أحمد) على تكليف أحد رجاله (واسمه لونس عمروني - وهو يعيش حياة الثورة منذ سنة 1947) بمرافقته رجال
المجموعة، والسير بهم فوراً وبدون إعطائهم أيّة فترة للراحة، حتى الوصول معهم إلى (قروشة الأربعاء) حيث الغابة الكثيفة التي أطلت الثوار، وهناك، التقت المجموعات كلها، لتبديا مرحلة جديدة من العمل الثوري.

و- الولاية الأولى في معركة التحرير (1)

بدأت الاستعدادات العسكرية للثورة منذ أوائل ربيع سنة 1954 حيث كان القائد (مصطفى بن بولعيد) يقوم بالاتصالات مع أعضاء المنظمة الثورية في بقية أنحاء الجزائر، يعاونه في جهوده (شبيبة شيخانى)، كأن كان الحاج الأخضر ورشيد بن شمال يعملان على تجنيد الشباب المناضلين الذين عرفوا بمضيهم المشرف. فكان يتم قبول هؤلاء المناضلين وتنظيمهم في خلايا عسكرية، بعد وضعهم تحت إمتحان دقيق للتأكد من تصميمهم على الجهاد، وصلابة إيمانهم، وقوة إرادتهم. وكان من مهمة (الحاج الأخضر وبو شمال) نشر الوعي الثوري في أوساط الشعب، واختيار مدى استعداد الرأي العام لقبول الثورة، وتنمية الاتجاه الثوري الذي أخذ في النمو والاستمرار بين جامع الشعب على أثر قيام الصراع المسلح في تونس والمغرب، وقد استقبلت مناطق الجزائر كلها استقبالا حاسماً مشجعاً زياً

(1) المرجع: مجلة (المجاهد) الجزائرية، العدد 42 تاريخ 18/5/1959. وكتب البحث هو الحاج الأخضر، والذي عرف في الثورة باسم (الكومندان الحاج الأخضر). وقد تم الاستعداد في البحث على وثائق مركز البحوث في الجزائر وعلى معركة الشخصية بمسيرة الأحداث.
( الحاج الأخضر وبو شمال ) مما كان يزيد من عزيمته وأوقد من أزرهما ويدفعها لتطوير العمل الثوري. وذكر الحاج الأخضر ذلك في قول: "كنا نتحدث مع المجاهدين عن مستقبل الجزائر، ونتمطر لظروف المتوازمة والمناسبة لقيام الثورة، ولم نكن نصرف لهم بدءاً بآتنا نستعد للقيام بالثورة، ولكننا ننشر إشارات بعيدة، فيها من الغموض أكثر مما فيها من الوضوح. فنجد الناس يتساءلون عن سبب عدم إندلاع نار الثورة، وطالبونا بالعمل المباشر. وكنا نقدم التقارير إلى الأخ - الشهيد - مصطفى بن بو العيد - نؤكد فيها استعداد الشعب للجهاد، وتأييده للعمل الثوري."

توافر نتيجة الجهود المبذولة عدد من خيرة المقاتلين الأشداء، فتم عقد اجتماع للقيادة في شهر تموز - يوليو - 1964. تقرر فيه توزيع الخلايا العسكرية على الجهات معينة من منطقة الأوراس. وطلب ان كل مjahد انضم إلى جيش التحرير الوطني تقديم مبلغ (16) ألف فرنك من أجل شراء بندقية له. وكانت القيادة قد بدأت بجمع السلاح، غير أنه لم يتم توزيعه على المقاتلين، وإنما كان يتم نقله إلى جبال الأوراس حيث الغابات الكثيفة تؤمن غطاء جيداً لمارسة التدريب العسكري، واتنان الرمي واستخدام السلاح. وبينما كانت عمليات نقل الأسلحة مستمرة بفترات متبادلة إلى الأوراس، كانت المناورات العسكرية وأعمال التدريب مستمرة أيضاً، حتى جاءت ليلة الثورة. وكان المسؤولون في التنظيم قد أعلموا بالموعد قبل أيام قليلة، وعندما تم إعلام المجاهدين بالوقت المحدد للبدء بالأعمال القتالية، اجتاحتهم
الحماسة، وأظهروا استعداداً كبيراً لتقديم التضحيات بالغة ما بلغت. كاٍ أظهروا إدراكاً عميقاً لأهمية اللحظات الحاسمة التي كانوا يعيشونها.

فكانوا يتزمون بالتعليمات والأوامر وينفذونها بسرية تامة. لقد وهبوا أنفسهم لقضية وطنية مقدسة، ووضعوا ثقتهم في قادتهم المؤمنين الصادقين، وتركوا لهم مهمة الإعداد السري للثورة، وقبلوا تنفيذ كل ما يطلب إليهم تنفيذه بدون مناقشة، ومن غير أن يسألوا عن الهدف أو القصد منه، أو عن موعد العمل المباشر، أو غير ذلك من الأسئلة التي قد تخرج المسؤولين أو تعرض الثورة لخطر مدمر، والثورة لا زالت في بداياتها الأولى.

انطلقت الخلايا الثورية الأولى نحو أهدافها المحددة، وهي مسلحة بالإيمان العميق وخاطفة بجرو من التنظيم الدقيق والسرية المطلقة والتصميم العنيف. وكان المجاهدون قد وسعوا على الجهات المختلفة، فاتجه ثمانون منهم إلى (فم الطوب)، وذهب خمسون إلى ناحية (أريس)، واستقر سبعون آخرون في (غابة كامل).

وقام خمسة وثلاثون بمجزم عن (بطناء)، وكان النجاح حليفاً لهذا الهجوم، حيث قتل للعدو سبعة جنود وأصيب ثلاثة آخرون بجرح. ونجح هجوم (فم الطوب) أيضاً حيث احتلتها قوات الثورة لمدة ستة أيام وغنمتها منها تسعة بنادق حربية. وفي الوقت ذاته، وهوجمت أريس وخنشلة وتازولت وقلس وغيرها من جهات أوراس الشام، وواجهت قيادة الثورة منذ البداية مجموعة من الصعوبات الضخمة.
فقد بدأت الثورة مع بداية فصل الشتاء. ولم تكن الظروف المناخية تسمح للمجاهدين بتوسيع آفاق الثورة، غير أن هذه الظروف المناخية كانت بدورها عاملًا مساعداً على نجاح الثورة، ذلك لأنها أعادت تحرك الأرئال الضخمة للقوات الفرنسية، وأعطت لقادة الثورة مساحةً كافياً من الوقت للإعداد والتنظيم.

لقد كان الشك يراود جامع الشعب في بداية الأمر بقدرة الثورة على الصمود والاستمرار، فإذا ما استطاعت الثورة المحافظة على وجودها لأكثر من ثلاثة أشهر، وتمكن في الوقت ذاته من تطوير صراعها ضد الفرنسيين طوال هذه المدة، فقد بلغت ستين قتلى جامع الشعب بالقوة الحقيقية للثورة، وستونات لدى القناعات والثقة بقدرتها على النجاح. وعلى هذا الأساس، فقد كانت الظروف الطبيعية والمناخية أفضل عامل مساعداً على إحباط كل المحاولات والمشاريع التي وضعتها السلطات الاستعمارية لتدمير الثورة، والقضاء عليها، وهي لا زالت غضة العود في مثها.

أصبحت الثورة مع بداية العام 1955، راسخة الجذور في قلب الشعب، وتعاظم عدد المجاهدين في صفوف الثورة. وأقبل المواطنين على التطور بوفرة هائلة في (جيش التحرير الوطني) ودعمه بالأسلحة والذخائر والأموال والتبرع له بكل ما يمكنه. وكان من نتيجة ذلك أن أصدر القائد (مصطفى بن بولعيد) أوامراً إلى المجاهدين بتوسيع مناطق العمليات، والانتصال بالأخوة المجاهدين في الولايات الثانية والثالثة. وتم تأمين الإتصال فعلاً، وتنسيق التعاون، بين (ولايات الجهاد الثلاث). وانشر جند الثورة في جميع أنحاء الولاية الأولى، وأرسل ثلاثون ماجاحداً إلى
منطقة الجنوب الصحراوي فوصلوا الى ( وادي سوف ) واستقبلتهم جاهير الشعب بحماسة رائعة، وانطلق الدعوة في الأسواق العامة ومناطق التجمع، يضربون الناس ويدعونهم للجهاد في سبيل الله. وحدثت استياعات مع القوات الإفرنجية عند حدود الصحراء، تكتب فيها العدو خسائر فادحة تزيد على خسارة جندي. واستطاعت قيادة الثورة في الشمال تنظيم خلايا ثورية قوية ومتينة ( في مدن: العيون وباريكا ومدوكال ) وساهما من المدن الواقعة على أطراف الولاية، وأصبح الإتصال بالولايات المجاورة منتظماً ومستمراً، كما تم الوصول شرقاً الى الحدود التونسية.

ذلك، ومع بداية العام 1955، بلغت الولاية حدودها الحالية التي تبع شمالاً خط السكة الحديدية القادمة من سوق أهراس الى سطيف، وتنزل غرباً نحو ( برج بربريج - المسيلة ) المتقاتعة مع طريق ( بو سعادات ) وتوازي شرقاً الحدود التونسية، وتمتد جنوباً الى أطراف الصحراء الكبرى. وقد أصبحت هذه المنطقة تحمل اسم (الولاية الأولى) منذ أن تم استخدام أسماء الولايات بدلاً من المناطق، في اثر مؤتمر الصومال (في 20 آب - أغسطس -1956)، وقسمت الولاية الأولى إلى ست مناطق رئيسية. من بينها منطقة كبرى محورة تحتراً تاناً هي المنطقة الثانية الواقعة الى الغرب من ( جبل شيليا ) والتي تمتد فيها غابة كامل ( كميل ) على مساحة مربعة طول ضلماها ثمانون كيلو متراً. وهذه المنطقة محورة على القوات الإفرنجية التي لم تكون قادرة على الاقتراب منها إلا بعمليات ضخمة، وبقوات كبيرة يزيد عدد أفرادها على عشرين أو ثلاثين ألف جندي. ( الأمر الذي دفع القيادة الإفرنجية لتنظيم
حملة مرة في كل سنة لتمشيط هذه المنطقة). وقد بقيت المنطقة باستمرار قاعدة صلبة للثورة، تتشر فيها القوات العسكرية للثورة، ويلجأ إليها أعداد المدنيين الكبيرة ليعيشوا فيها ضمن إطار ظروف صعبة بسبب الهجمات المستمرة للطائرات الإفرنسية على أماكنهم، وبسبب فقر المنطقة في الموارد الاقتصادية، وإن كانوا قد نجحوا في حراثة الأرض - بمساعدة جند جيش التحرير وزراعتها ببعض الحبوب والخضار.

لقد هرب هؤلاء المدنيين من جحيم القمع الوحشي للإفرنسيين والنجوا إلى قواعد الثورة بالرغم من كل المصاعب التي كانت تعانيها حياة هذه القواعد. وكانت صعوبة نجاحهم لا توصف وهم يعيشون حياة النظام التي صنعها لهم جند جيش التحرير في تلك المناطق البدائية. فقد عمل جيش التحرير على بناء المنازل لإيواء اللاجئين، ونظم لهم مدارس الأطفال، وأمن لهم تنظيماً صحياً يضم العلاج للجميع. وفي بقية المناطق الأخرى التي تمركز فيها القوات العسكرية الإفرنسية (و خاصة في منطقة بطن ) نظم الثوار أعمامهم للقيام بهجمات مستمرة بلغ معدوا الوسطي خمسة عشر هجوماً في الشهر، مع تنفيذ هذه الهجمات. بمجموعات صغيرة من الأفراد واجههم الاشتباك مع قوات العدو بالنيران - مناوة، ووضعها دائما تحت شعور التهديد بالخطر، وحرمهم من الراحة والأمن. وشجع هذه الأعمال الناجحة قوات الثورة، فتعاظم حجمه أفوات الفدائين، وازداد عدد زمر التدمير، التي استطاعت تنفيذ عمليات رائعة بتسللها إلى قلب المدن والمرئيات الإفرنسية، وتدميرها لموارد العدو الاقتصادية، وإعدادها للخوفة وعملا.
السلطة الإفريقية وقادة الاستعماريين.

ولم تمض فترة طويلة حتى بات الشعب كله وهو منظم في خلايا وأفواج تنظيما سياسيا وعسكريا، يتوافق مع متطلبات جبهة التحرير الوطني، ويستجيب لتنظيم جيش التحرير الوطني. وأصبح هناك مجالس للمجاهدين في كل دشة (أو دسيرة) وفي كل قرية ومدينة. وأظهرت جماهير الشعب حماسة لا تظير للمطروع في الجيش، غير أن النقص في الأسلحة أعاق عملية تطويق كل الراغبين في حمل السلاح. لقد نضج الشعب على هضب الحرب، وأصبح أكثر استعدادا لاحتمال أعظم التضحيات، ورافقت ذلك تعاظم في مستوى الوعي الثوري، وبلغ هذا الوعي، من العميق والقوة، ما جعله قادرا على مجابهة التحديات منها عظمت، وتتجاوز الصعوبات منها أشدت. وكان دليل ذلك هو فشل كل وسائل الضغط والأرهاب في إضعاف مقاومة الشعب الجزائري، وكذلك فشل محاولات فصل جيش التحرير الوطني وجهة التحرير الوطني عن الشعب.

لقد استخدمت أجهزة الاستعمار الفرنسي وسائل كثيرة، وطبقت أساليب متنوعة، تلتقى كلها عند هدف واحد هو إبادة الشعب الجزائري بطرق منهجية. وكان في جملة ما طبته للوصول إلى هذا الهدف، حشد الشعب في معسكرات اعتقال أطلق عليها اسم (مراكز التجمع). ويمكن تقسيم هذه المراكز إلى قسمين رئيسيين، قسم قريب من الطرق العامة والأراضي المنبسطة (السهلية). وهذا القسم هو الذي كان يتم عرضه على رجال الصحافة والمحققين والباحثين من الأجانب وغيرهم، ولذلك بذل
الجيش الإفرنسي عنابة خاصة بنزلاه هذا القسم من المراكز، فأمن للنزلاء المساكن المقبولة، وحداً أدنى من متطلبات الحياة، ليتظهر بأنه لا يرمي من إقامة هذه المراكز إلى إبادة الشعب الجزائري. أما القسم الآخر، فيشمل المراكز البعيدة، وهي تشكل الأكترية المطلقة لهذه المراكز، وتمثل الحياة فيها أشد أنواع البؤس، وأقسى صنوف الشقاء، مما يصعب وصفه أو الاحاطة به. ومثال ذلك، أن السلطات الاستعمارية كانت تحشر في المركز خمس عشرة أو ست عشرة عائلة كبيرة في غرفة واحدة، هي عبارة عن كوخ، لا يضمن لساكيه ونزلائه أي وقاية ضد البرد والمطر. وانتهى الأمر بمعظم هؤلاء إلى الإصابة بمختلف الأمراض المستعصية، علاوة على ما كان يعانيه المعتقلون من الجوع والتعذيب، وانهاء الأعراض، وكل أنواع الضغوط المادية والمعنوية التي سلطتها عليهم جنود الجيش الإفرنسي. ولم توقف السلطات الاستعمارية عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى تعميم عمليات (تعقيم) الشباب من ذكور وإناث، لمنع الشعب الجزائري من التكاثر والتناسل، كوسيلة في جملة وسائل إبادة الشعب الجزائري.

لم تضعف مقاومة الشعب الجزائري بالرغم من كل هذا العذاب المسلط على رقامهم، فأخذ المواطنون في حض الجيش على المزيد من المقاومة، وتخريبه على الصبر والثبات. وكانت النسوة في مراكز التجمع يرفضن التحدث إلى نساء (القوم). ولا يقبلن زيارةهن أو الذهاب معهن جبل الماء. كما كان الأطفال يشدون الأناشيد الوطنية، وينغون الأغاني الحماسية، على الرغم من الأمراض التي كانت تتخز في أجسادهم الغضة الطرية. وكان
هؤلاء الأطفال - البوسائين الجياع - يقلدون في ألعابهم جاهدي جيش التحرير، فيظلمون الكتائب والسرادق، ويسخرون من الجنود الإفرنسيين ويتعدونهم بالموت على أيدي جنود جيش التحرير الوطني.

كان من نتيجة هذه المعاملة الإفرنسية، أن أخذ المواطنون في البحث، من داخل هذه المراكز، عن كل وسيلة للفرار نحو الجبال، وكانوا يفضلون أن يبيموا على وجههم بلا مأوى، وبدون طعام، على أن يبقوا في مراكز التجمع، معرضين للموت البطيء، ولكل أنواع العذاب والذل والهوان مما كان يسلط عليهم جند الاستعمار. ولما يقف جيش التحرير مكتوف الأيدي أمام خطة الاستعمار لإبادة الشعب الجزائري. فكونت الولاية الأولى على سبيل المثال: تنظيماً صحيًا لتأمين علاج أفراد الشعب يشرف عليه ثلاثة أطباء. كونوا بدورهم جهازاً ضم عدداً كبيراً من المرضى والممرضات. وكان جيش التحرير يلتقط الفارين من هذه المراكز، ويبعث بهم إلى المناطق المحررة حيث يجدون فيها ما يحتاجون من العناية الصحية والرعاية الاجتماعية.

وفي الوقت ذاته، كانت مجالس الشعب في القرى والمدن توزع المساعدات على المحتاجين، وضحايا القمع الاستعماري. وإذا كانت خطة الجيش الإفرنسي هي إبادة الشعب الجزائري، فقد جاءت خطة جبهة التحرير لتعمل على صيانة الشعب وحمايته وتنظيم حياته الاجتماعية، وإذكاء روح الصمود والمقاومة في صفوفه. وأصبحت السلطة الحقيقية في الجزائر كلها وهي محكمة في قضية جبهة التحرير، حتى أن عدداً كبيراً من المعمرين
(الكولون) كانوا يدفعون للجبهة الاشتراكية والترعات، ويقدمون المواد التموينية للجيش. وبصورة عامة، فإن الشعب الجزائري، قد عاش تجربة الجهاد التي كونته تكويناً جديداً، فأصبح مؤمناً ببريكه الحر ومستقبله المشرق.

ز - الثورة في ولاية وهران(1)

ولاية وهران، أو الولاية الخامسة، وهي تمتد من البحر الأبيض المتوسط شمالاً، إلى أقصى جنوب الجزائر، وتمتد من حدود المغرب الأقصى إلى الحدود الإدارية لعملة الجزائر شرقاً. وهي تمثل ثالث مساحة القطر الجزائري. وتشمل ثمانية مناطق عسكرية. وقد نظمها المجاهد الشهيد (محمد العربي بن مهدي) بعاونته (بوصوف) وبعض المجاهدين الآخرين الذين استشهد بعضهم وسجن بعضهم الآخر. وكانت الولايات حينذاك تدعى (بالمناطق). ولم يبدأ العمل في منطقة وهران، منذ أول شرين الثاني- نوفمبر - 1954. إذ استطاع العدو، مع بداية الثورة، تدمير الفرق الصغيرة والحلايا التي كانت منظمة حينذاك. ومضت فترة بعد ذلك من إعادة تنظيم الخلايا، والاستعداد السري، وتجنيد الشباب من عرف منهم الصدق في وطنيتهم بالخلاص لمبادئهم، وبماضفهم المشرف في الصراع ضد الاستعمار، وعملهم المؤدب في نشر الوعي الوطني والثوري في وسط جمهور الشعب. وقد أظهرت جاهزية (وهران) في هذه الفترة حاسمة رائعة للقيام

(1) المرجع: مجلة (المجاهد) الجزائرية 1959/5/1.
بالعمل العظيم الذي سبقى خالداً في تاريخ الثورة الجزائرية،
وهو العمل المعروف باسم (معركة جبل عمور).

* * *

وقعت (معركة جبل عمور) يوم 2 تشرين الأول - أكتوبر 1956. وشارك فيها خمسة جندي من جيش التحرير الوطني، في حين كانت القوات الفرنسية تضم آلاف المقاتلين. وقد استمرت المعركة أسبوعاً كاملاً، وكانت نتائجها قتل 1375 جندياً فرنسياً، من بينهم 92 ضابطاً، دفنتوا في (تاهرت) وإحرق سيارة (ج. م. س) وجيب. وحصل الثوار على أسلحة وفيرة وبكميات هائلة، حتى كان كل جندي من جنود جيش التحرير يحمل معه أربعاً أو خمساً من البنادق. كما أسقطت عدة طائرات حرية فرنسية. ولم يضر المجاهدون في المعركة سوى أربعين شهيداً. وذلك لأن المجاهدين أفادوا من عنصر المباغة، بقدر ما أفادوا أيضاً من الموقع الطبيعي لميدان القتال، حيث الجبال المنيعة والأراضي الوعرة.

* * *

لقد بدأت قصة هذه المعركة عندما مرت كتيبة من كتائب جيش التحرير بقرية بدوية، وعلمت من سكانها أن قوات فرنسية ضخمة كانت تسير نحو القرية، فانسحبت الكتيبة نحو الجبل القريب من القرية. ووصلت القوات الفرنسية، وعانت فساداً في القرية المحرومة من كل وسائل الدفاع. وارتكبت فيها أنواع الفظائع والمنكرات والمجرمات، ونكلت بالمواطنين، فقرر تلكونات
الانتقام للضحايا البريئة. وأقامت كميناً للقوة الإفريκيسة في الطريق وأبدت إبادة تامة، بحيث لم ينج منها إلا ضابط برتبة صغيرة، فر بسيارته لم ينقل إلى قيادته مصير القوة وما تعرضت له من الدمار الكامل.

وأثناء ذلك، قامت كتيبة جيش التحرير الوطني بجمع الأسلحة والغنائم، والتحقت بثلاث كتائب أخرى من قوات جيش التحرير، ولم يتمكن الإفريكيون من القيام برد فعل مباشر في اليوم ذاته، فانتظروا حتى اليوم التالي، حيث دفعوا بتفصيلة تضم مادة وخمس مركبات عسكرية، للانتقام من هزيمة اليوم السابق، وكانت قوة كتائب جيش التحرير الأربع لا تزيد على خمسة مقاتل، تم توزيعهم على امتداد سبعة كيلومترات في كمين محكم يجاور الطريق. ومكث المجاهدون في مراكزهم وأماكنهم ينتظرون وصول القافلة الإفريکية إلى منطقة القتال لينقضوا عليها. ووصلت القافلة، وأخذت في المرور من أمام قوة الكمين، وعلى مدى نار أسلحة المجاهدين، الذين لم يظهروا أي حركة واحدة، حتى أصبحت القافلة كله محاصرة داخل دائرة الكمين. وفتح المجاهدون نيران أسلحتهم بصورة مباغطة، أذهلت القوات الإفريکية ونشرت الذعر والفوضى بين أفرادها، والتهبت النار سياراتها العسكرية، وتساقط جنود القوة الإفريکية وضباطها قتلى بالملامات. وتوالت النجذبات الإفريکية، بعد أن وصلتها أخبار المعركة، وما نزل بالقوة من نكبة مدمرة. فتوزعت كتائب المجاهدين إلى زمر ووحدات صغيرة، وتابعت الاشتباك بالنيران مع القوات الإفريکية، مع الانقضاض عليها كله رأتم الظروف.
مناسبةً لها. واستمرت الاشتباكات لمدة أسبوع كامل. وكان معظم الجنود الإفريقيين الذين تمت محاولتهم بالجملة في هذه المعركة، هم من المجندين الذين وصلوا حديثاً من فرنسا.

انتشرت أخبار هذا الانتصار الرائع في كل أرجاء البلاد، وتركت أثراً عميقاً في أهالي الجنوب الجزائري بصورة خاصة، لأنهم لم يكونوا من قبل على اتصال بثوار ولاية وهران، أو الولاية الخامسة، وأصبحوا وهم يتحدثون بإعجاب وتقدير عن المصير الذي آل إليه (جيش أفلو) على أيدي الثوار الوهرانيين. وهم ينظرون إلى المستقبل نظرة الأملا والتفاؤل والإيمان بحتمية النصر. وتفنن الشعراوي الشعبيون وما أكثرهم وأروعهم في جنوب البلاد، في أشعارهم وأعمالهم، بهذا النصر الكبير الذي أعاد إلى أذهانهم ذكريات الأجداد الأبطال وملاحمهم الخالدة على الزمان.

ومقابل ذلك، تأثرت القوات الإفريقية إلى حد كبير بنتيجة هذه المعركة، وانهار روحا المعنوية. وأصبحت نظرتها إلى الثوار مرتبطاً بشعار الرعب والهلع، وتززعزعت صفوف (بن يونس) أو (بليونس) الذي حاول الجزائريون استخدامه ضد أمتهم وشعبه فجدوا له جيشاً هزيلًا معظم أفراده من المستوطنين للاعمل ضد جيش التحرير وقوات الثورة. وهكذا، ومع حلول شهر تشرين الأول - أكتوبر 1956، انتشرت آفاق العمليات إلى كل المناطق، ووصلت وحدات من (معسكر غليزان) إلى ناحية تامرت. وبذلك تم تعميم العمل الثوري العسكري في كل أنحاء الولاية، ودخلت الثورة الجزائرية مرحلة جديدة في جميع
الميادين الاجتماعية والسياسية والعسكرية. وأصبحت منطقة وهران بمثابة التنظيم الجديد يحمل اسم (الولاية الخامسة)، وتعمل تحت قيادة (عبد الحفيظ بوصوف)، وقسمت الولاية بدورها إلى ثماني مناطق، مقسمة إلى نواح وأقسام، وحددت المسؤوليات تحديداً دقيقاً. وأدخلت الرتب العسكرية. وأصبح الجيش منظماً تظنيحاً حديثاً. ومدرباً تدريباً عسكرياً جيداً. وكان لهذا التنظيم الجديد صدام الكبير في الداخل والخارج. وتعدمت الثورة بخروج الشباب المثقف لميدان العمل بعد إعلان الإضراب العام عن الدراسة في المدن، وتطوعهم في جيش التحرير، حيث قدموا خدمات كبيرة في ميدان نشر الوعي الاجتماعي والسياسي في صفوف الشعب. وأُسهِموا بإطلاق طاقاته الكامنة، وتنظيمهم لبناء الجزائر الجديدة.

تبع ذلك تغيير في الحالة النفسية للشعب، فقد انتشرت الفكرة الشورية بجانبيها الاجتماعي والسياسي. وكانت المنشورات والصحف الصادرة عن الولاية، توضح للشعب مبادئ الثورة وأهدافها، وتتحدث عن نشاط الثورة في الداخل والخارج. ونظم الموجهون السياسيون الخلايا الثورية في كل مكان من القرى والمدن. كما تكونت المجالس الشعبية التي ينتخبها الشعب بالاقتراع العام المباشر. وكانت الانتخابات تجري في الليل، ويلي أفراد الشعب على الاشتراك فيها بحماسة رائعة.

وتقوم هذه المجالس، إلى جانب اللجان الثلاثية، بكل الأعمال الإدارية والاجتماعية، من تعليم وقضاء وجمع للتبرعات، وإشراف على الخدمات الصحية، وإسعاف للمنكوبين من ضحايا
القمع الاستعماري. فيحصل المحتاجون والأيتام وعائلات المعتقلين والمجاهدين على الإعانات اللازمة لهم. وكثيراً ما كان يحدث أن تخد أسرة تعرضت للقمع الاستعماري وفقدت منزلها، خلال ساعة واحدة، بينما يعود يكون، مع تقديم كل المساعدات من مأكل وثياب، وسواء ذلك من متطلبات الحياة الضرورية.

وفي مجال الخدمات الصحية، أصبح في ولاية وهران اعتباراً من عام 1957 على وجه التحديد عدد كبير من الأطباء والطلاب الذين درسوا في كليات الطب، والممرضون (وكان يتم من قبل تكليف الممرضين بتعليم المجاهدين مبادئ الإسعاف الأولية) وأدى توافر الأطباء إلى دعم التنظيم الصحي. ف啚اقت مراكز طبية ومستوصفات تعمل تحت الأرض - في الملاجئ - يعمل فيها المرضى ويتزود عليها الأطباء. ونظمت مدرسة لإعداد الممرضين. ونجح أحد الأطباء بإقامة مستشفى كامل الأجهزة والمختبرات، تحت الأرض، ولهجهة لإجراء التحاليل، والقيام بالتجارب الطبية، مع وجود أسرة كافية ومعالجة الحالات الخطيرة. ودرب عدداً من الممرضات الاختصاصيات لمعالجة النساء والمدنيين الذين أصبحوا بعد المقاطعة التامة للإدارة الفرنسية وأجهزتها، يعتمدون علي الذهاب للطيبين الفرنسيين. فكان من الضروري الاهتمام بعالجهم. وكان الطبيب يقوم بنفسه بجولات على الفر يعالج المرضى المدنيين - غير المقاتلين. وقد انتشر هذا التنظيم الصحي في جميع أنحاء الولاية، فكان يوجد في كل منطقة طبيعة أو ثلاثة أطباء، ومستشفى للأجراحة العامة، إلى جانب. 202
تلك هي سطور قليلة في قصة بداية الثورة وفي عرض فصول هذه البداية من الإيجاز قدر ما فيها من التفصيل، وفيها من التشادب قدر ما فيها من الإضافات المثيرة والمفيدة في آن واحد.

وقد كان بالمستطاع دمج تلك الفصول (الأقصاص) في رواية واحدة لحذف ما ورد فيها من تشادب أو تكرار، غير أنها والحالة هذه تستفيد كثيرا من صورها الجمالية، كما تستفيد طبيعتها الطوعية في سرد الأحداث. وبالإضافة إلى ذلك، فإن هذا التكرار المقبول في بعض الأحيان هو مما يساعد على تركيز بعض النقاط الهامة والحاسمة في (قصة بداية الثورة).

لقد بدأت الثورة بعد مرحلة طويلة من المخاض العسير، ولو أن الإعداد في المرحلة الأخيرة لم يتجاوز الشهور القليلة. ويعتبر ذلك برهانا حاسماً، لا يقبل الجدل والنقاش، على قوة قاعدة الثورة في الوطن الجزائري وصلابتها، وهي القاعدة التي استمر العمل لبنائها ودعمها عشرات السنين. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فإن انطلاقاً الثورة من المنطقة الشرقية، وثبات قاعدتها فيها، لا يعود إلى العامل الجيوسياساتي فقط، أي إلى صعوبة منطقتي الأوراس والقبائل من الناحية الجغرافية، بقدر ما يعود إلى طبيعة العامل البشري (الديموغرافي). فقد استطاع المسلمون في هذه القاعدة المحافظة على أصلتهم، والتمسك بعناصر قوتهم (الإسلام والعروبة)، فكان في ذلك الأساس الثابت للبناء الثوري الضخم.  

٢٠٣
وبحت، فقد انطلقت الثورة، وحاضت معاركها في إطار (حروب الإرهاب). الأعيان بالله وبقضية الوطن والمواطن المسلم والعربي. ولم يكن اختيار كلمتي السر والإجابة (خالد عقب) لإطلاق شرارة الثورة إلا تأكيداً على ربط الثورة بأرضيتها الصلبة. وكان لفرنسا وأجهزتها الاستعمارية دور لا يتجزأ في مساعدة الثورة على الانطلاق والتطور. فبالعملية الوحشية، ووسائل القهر والإذلال، قد نتجت لفترة مؤقتة، وقد تنحصر ضد شعب محروم الجذور (كالهنود الحمر مثلًا) غير أنه من المحال لها أن تنتج بصورة نهائية أو تنحصر بصورة حاسمة ضد شعب يضرب في أصوله إلى أعماق التاريخ. وذلك هو الدروس الذي استوعبه جيداً مراكز القوى المضادة للعالم الإسلامي، فست في أساليبها المتطرفة لضرب هذه الأصالة (في المسجد الإسلامي والمدرسة الإسلامية)، وذلك هو الدروس الذي يجب على العالم الإسلامي العربي استيعابه في فلسطين، وفي غير فلسطين من أقطار العالم الإسلامي. لمواجهة الحملات الضارية التي لا زالت تفكك بكيان الأمة الخالدة.

لقد نسج الثورات التاريخية قصة بداية الثورة، بتضحياتهم وجهدهم ودمائهم، فدفعوا من أموالهم ثم أسلحتهم، ووصلوا الليل بالنهاز والأيام بالشهور في جهد مستمر لا يعرف النهوض، ولا يتوقف إله الوهن أو اليأس، وسط صعوبات لا توصف، حتى أمكن تسجيل بداية الحدث التاريخي، ثم مضى عدد كبير من رواج الثورة، شهداء إلى الملأ الأعلى، تاركين لإخوانهم في الله والوطن متابعة المسيرة على الطريق الذي رسموه بتضحياتهم.
وأرواحهم. فكان هؤلاء الرواد نماذج حقيقية للثوار الحقيقيين والأحرار الأصلياء. لقد خرجوا على الدنيا، ووهبوها وجودهم وما يملكونه فكان في ذلك انتصارهم الحاسم (على النفس والهوى). وكان في هذا النصر العدفة الحقيقية للنصر على الأعداء.
المراجع


4 - أضواء على القضية الجزائرية - إبراهيم كه - بغداد - 1956.

5 - الاستعمار وأثاره في الجزائر - الجمهورية الجزائرية - مكتب دمشق - قسم الدعاية - 1958.


المبرم
الموضوع
الإهداء
المقدمة
الفصل الأول

1 - الوضع العام في الجزائر عشية الثورة
   آ - اغتصاب الأرض
   ب - الموقف السكاني (الديموغرافي)
   ج - النهب الاستعماري
   د - البترول والغاز الطبيعي
   ه - الموقف التعليمي - الثقافي

2 - الموقع الجيوسياسي والديموغرافي
   آ - 1 - إقليم الشواطئ
   آ - 2 - إقليم الأطلس - التلي
   آ - 3 - إقليم النجود
   آ - 4 - الأطلس الصحراوي
   آ - 5 - إقليم الصحراء

ب - وديان الجزائر

ب - 1 - الأودية الشمالية
ب - 2 - أودية النجود

٢٠٧
الفصل الثاني

1 - في فلسفة الثورة
2 - البيان الأول للثورة
3 - مكتب جبهة التحرير في القاهرة
4 - بدايات العمل الثوري
5 - انطلاقا الثورة في كتابة قائد فرنسي
6 - عقبات على طريق الثورة
7 - الثورة في وثائق ثوارها
8 - الإعداد للثورة
9 - الله أكبر - خالد - عقبة
10 - هيب الثورة في أريس
11 - نجر يوم الثورة المسلحة
12 - إندلاع الثورة في متيرة (متيجة)
13 - الولاية الأولى في معركة التحرير
14 - الثورة في ولاية وهران

المراجع